

جوهرا الاسلام

العدد 8/7 - السنة 21
1444 هـ / 2022 م

الثمن 5 د.ت - 5 أورو



جواهر الإسلام

مؤسس المجلة فضيلة الشيخ الحبيب المستاوي رحمه الله

المدير ورئيس التحرير

الأستاذ محمد صالح الدين المستاوي

العنوان	28 نهج جمال عبد الناصر - تونس 1000
الهاتف الفاكس	216.71.327.130 216.71.423.233
البريد الإلكتروني الموقع الإلكتروني	mestaoui.s@gnet.tn www.jawhar-al-islam.info
الحساب الجاري بالبنك العربي لتونس (الجزيرة)	010000211110000238106
ISSN	0330-4957

الاشترك للمؤسسات	الاشترك بتونس	التمن للأفراد
بتونس 50 د.ت	للأفراد : 30 د.ت	بتونس 5 د.ت
بالخارج 50 أورو	بالخارج 40 أورو	بالخارج 5 أورو

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ



جواهر الإسلام

مؤسس المجلة فضيلة

الشيخ الحبيب المستاوي رحمه الله

المدير ورئيس التحرير

الأستاذ محمد صلاح الدين المستاوي

المحتوى

- 6 الافتتاحية :
رئيس التحرير
- 6 الأزمة الأخلاقية هي أصل الأزمات والسبب لها
بقلم الشيخ الحبيب المستاوي- رحمه الله-
- 8 تفسير آيات من القرآن الكريم
بقلم معالي الشيخ عبد الله بن بيه
- 12 الواقع المعاصر وأثره في الأحكام الشرعية
بقلم معالي الشيخ عبد الله بن بيه
- 24 التراث وتحسين المجتمع
بقلم فضيلة الأستاذ الدكتور أبو لبابة الطاهر صالح حسين
- 35 خطورة التكفير
بقلم فضيلة شيخ الازهر الدكتور أحمد الطيب
- 43 جذور اللغة العربية في فرنسا
بقلم الأستاذ صالح العود
- 46 المصحف الشريف بتونس من المخطوط إلى المطبوع
بقلم الأستاذ محمد الصادق عبد اللطيف
- 52 من كلام ابن عباد الرندي في دور الخطيب والخطابة في إصلاح المجتمع
بقلم الدكتور كنيث عبد الهادي هضر كاسب

في رياض السنة : الحديث الحادي والعشرون من الأربعين النووية الاستقامة 60
بقلم الأستاذ محمد صالح الدين المستاوي

كفى عبثاً بالعقول ! 64
بقلم الأستاذ إبراهيم الرسو

مفاهيم إسلامية : ضرورة التلازم بين عدل الحكام وأمانة العلماء وكرم الأثرياء 66
بقلم الشيخ الحبيب المستاوي - رحمه الله -

ضلال الإفتاء بإحراق كتاب الإحياء لحجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي ... 69
بقلم الأستاذ صالح العود

7 كتب لحجة الإسلام الامام أبو حامد الغزالي يتولى تحقيقها الدكتور

محمد احمد الشريف 71

العلامة محمد الطاهر ابن عاشور .. رائد الإصلاح والتجديد في العالم الإسلامي 74
بقلم : الأستاذ الدكتور زهير مصر اوي

فضيلة الشيخ عبد العزيز الزّغلامي رحمه الله (مسيرة نضال لقاض زيتوني) 77
بقلم: د. أحمد السّهييلي

خطبة الجمعة : في استقبال العام الهجري الجديد 1444 85
الشيخ محمد صالح الدين المستاوي - رحمه الله -

علماء غادرونا..... 89

يسألونك قل : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين 92
بقلم الشيخ محمد الحبيب النفطي - رحمه الله -

لا عاشور جديد... ولا عروي آخر ؟ 95
بقلم صالح الحاجة

الافتتاحية:

الأزمة الأخلاقية هي أصل الأزمات والسبب لها

يواجه المسلمون في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخهم تحديات متعددة ومتنوعة لا يمكن تجاهلها والتغافل عنها وتأجيل البحث لها عن حلول لها لا يزيد أوضاع المسلمين إلا تردّ وسوء وواقع المسلمين أينما كانوا في بلاد الإسلام وخارجها خير شاهد ودليل على ذلك والجميع يعبرون عن ذلك بمختلف الوسائل والأساليب.

فالأوضاع في بلاد العرب والإسلام من أدناها إلى أقصاها لا تكاد تختلف (مع تفاوت نسبي لا يذكر). والإجماع على ذلك حاصل ومسلم به لدى الجميع وبالخصوص (أولي الأمر وأصحاب الشأن) وهم المؤهلون للتشخيص وتقديم الحلول باعتبارهم مسؤولين أمام الله وأمام الأمة على تقديم الحلول الكفيلة بالخروج من هذه الأزمة وإن كانت المسؤولية في الإسلام يتحملها الجميع إذ (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) كما جاء في الحديث.

والتحديات التي يواجهها المسلمون عديدة - ولا ننكر أنها تواجه غيرهم من أغلبية شعوب العالم -

* إنها تحديات مادية حياتية تتمثل في حاجة وافتقار لضروريات العيش الكريم (من قوت ودواء و سكن وعمل يوفر دخلا لتحقيق تلك الحاجات) ولا يتسع المجال لبسط القول في أسباب ذلك وما يترتب عن ذلك من أزمات حادة تمر بها اغلب البلاد العربية والإسلامية بما في ذلك البلدان ذات الوفرة المادية المتأتية من ثروات غير مكتسبة بالعمل والجهد الذين هما اصل تحقيق النماء والازدهار المادي .

* وهي تحديات على المستوى القيمي الأخلاقي - وفي هذا المجال يمر المسلمون في هذه المرحلة من تاريخهم بأزمة- لان القيم والأخلاق ليست مظاهر وشعارات ولكنها ممارسات وسلوك يتطابق فيها القول بالفعل .وقول لا يقترب بفعل مردود على صاحبه ومكذب لادعائه .

وأيّن المسلمون اليوم من هدي الإسلام في مجال القيم والأخلاق. في تصرفات معتنقيه بكل فئاتهم وبدون استثناء إلا من رحم ربك بما في ذلك من يفترض فيهم أن يكونوا الأسوة والقُدوة ؟ انهم بعيدون كل البعد عن هدي الإسلام ولا نحتاج إلى تقديم

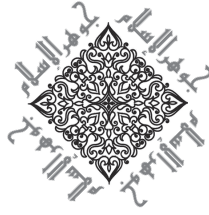
الأمثلة على ذلك فالواقع صارخ في الصدق والأمانة والعفة والإخلاص وغيرها وهو ما يدعو إلى الاستحياء وفي الحديث الشريف (استحيوا من الله حق الحياء...) .

✽ إن الأخلاق والقيم منظومة متكاملة لا تتجزأ وهي لا تؤتي الثمرة المرجوة منها إلا إذا تلازمت مع بعضها البعض تلازماً لا ينفك وهو التلازم الذي تجسد وتجسم في الأسوة والقُدوة المحمدية ذلك الإنسان الكامل (الذي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) والذي قال فيه ربه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا الخلق الكريم صدقاً وأمانة عرف به وشهد له به الجميع حتى من انكروا نبوته عليه الصلاة والسلام وقد بعثه ربه ليمتص مكارم الأخلاق بعد إخراجهم من الضلال وإرشادهم إلى الغرض من خلقهم والمتمثل في أداء واجب عبوديته وهي حقه على عباده (صلاة وصوما وزكاة وحجاً) إذا أدت على أحسن الوجوه (أصوبها وأخلصها) ولا يقبل الله من الأعمال إلا ما تحقق فيه هذا الشرطان وهي بذلك لا تلبث أن تترك أثارها الإيجابية في سلوك وسيرة القائم بها.

وقد جسم من كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه الكرام رضي الله عنهم هذه القيم الأخلاقية في أجلى صورها واجملها بعد أن كانوا في جاهلية جهلاء وهم بشر أسوياء يعيشون بين الناس وليسوا رهباناً . فلا رهبانية في الإسلام .

ولا تزال صفوة - ولو كانت قليلة في عددها (الخير فيّ وفي أمّتي إلى يوم القيامة) كما جاء في الحديث الشريف - تقتفي آثار سلف الأمة الصالح في تجسيم قيم الإسلام الأخلاقية يقولون للناس حسناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً سالكين نهج التزكية لأنفسهم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ موقنين ان السبق في طريق السير إلى الله يكون بالسبق في مكارم الأخلاق وليس بكثرة الصلاة والصيام شعارهم الآية الكريمة ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا...﴾ وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن جاءه يسأله النصيحة (قل آمنت بالله ثم استقم) آملين من ربهم الفلاح ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ .

إننا لا نجانب الصواب عندما نوّكد أن الأزمة التي يمر بها المسلمون هي بدرجة أولى أزمة أخلاقية على كل الأصعدة وإذا صلحت الأخلاق وأعني بذلك ما سبق ذكره من مظاهر السلوك القويم الذي تهدي إليه الفطرة السليمة والتفكير القويم وما تدعو إليه نصوص الشرع من قرآن وسنة وسيرة وشمائل ومأثورات وما يتطابق مع السلوك الحضاري، فلا يمكن تجاوز هذه الأزمة الأخلاقية التي يمر بها المسلمون إلا بتجسيم هذه القيم من طرف كل أفراد المجتمع وهي كفيلة بأن تحقق للإنسان ما يبتغيه من رخاء وتقدم ونماء في عاجل الحياة الدنيا وفوز في الآخرة (وهي الباقية وإليها المصير) ويفوز بالجزاء والرضوان ممن خلق الإنسان وسواه وأنعم عليه بما لا يستطيع ان يحصيه و يعده من النعم الظاهرة والخفية. والله الهادي إلى سواء السبيل .



تفسير آيات من القرآن الكريم

بقلم الشيخ الحبيب المستاوي - رحمه الله -

يقول الله تبارك وتعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ صدق الله العظيم (سورة المؤمنون - الآيات 73 - 80) .

لقد أفحم المولى سبحانه وتعالى كل معاند أثيم بحقائق دامغة تنفذ إلى ما خبأه الناس في سويداء أنفسهم من أسرار احكموا إغلاق منافذها حتى لا يعرفها سواهم، ذلك انه حصر أسباب المكابرة كلها في سبب واحد هو الدفاع عن الامتيازات الذي يكون عداوة أصلية بين الأقوياء والحق. الذي يساويهم بعبيدهم وأجرائهم ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ ثم ثنى بهذه الحقيقة بحقيقة أخرى لا تقل عنها اعتبارا وهي تضارب المصالح واختلاف المشارب والأذواق الأمر الذي يجعل اتباع الحق لتلك المصالح الظاهرة العارضة، والأذواق الفاسدة والمشارب المختلفة سببا لفساد السماوات والأرض ومن فيهن، ولا ينازع في هاتين الحقيقتين إلا الجاهلون والمعرضون ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ

فِيهِنَّ ﴿لَقَدْ مَرَّبْنَا هَذَا وَغَيْرَهُ وَفِيمَا يَنْفَرُ عَلَيْهِ حَتْمًا أَنْ يُلْخَصَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دَعْوَةُ رَسُولِهِ الْوَاضِحَةِ فِي أُبْرَزِ أَهْدَافِهَا وَأَجْلَى مَظَاهِرِهَا فَيَقُولُ ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَجَلٌ أَنَّهُ لِيَدْعُو الْإِنْسَانِيَّةَ إِلَى الْمَحَبَّةِ الْبَيْضَاءِ إِلَى الدِّينِ الْقِيمِ دِينَ الْفُطْرَةِ السَّلِيمَةِ الدِّينِ الَّذِي تَشْهَدُ الْعُقُولُ الرَّاجِحَةُ بِاسْتِقَامَتِهِ وَلَأنَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَأنَّهُ يَجْعَلُ أَسَاسَ التَّفَاضُلِ بَيْنَ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ فَقَطْ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أَمَا مَا زَادَ عَلَيْهَا فَاوْهَامَ وَتَضْلِيلَ.

وتخسر البشرية متى جعلت سلم القيم بينها آباء وجدودا أو أموالا ومراكز وما شابه ذلك من خزعات وألعيب ولقد خسرت فعلا وما تزال تخسر إلى أن تعود إلى الأسس القويمة التي أراد الإسلام أن يبنى عليها المجتمعات السليمة، وأنى لها أن تظفر بضالتها المنشودة ما دامت تنازع في نقطة البدء التي هي إيمان وطيد بالله وباليوم الآخر وبجميع ما جاء به الرسل الاطهار ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاَكِبُونَ﴾ كيف لا يحيد الجاحدون عن جادة الهدى ولا يتنبكون طريق الرشاد ما دامت الخطوة الأولى من خطاهم قد اتجهت اتجاهها منحرفا إذ كفروا بربهم وانكروا البعث والحساب فلا يرجى لهم إصلاح ولا يعلق عليهم أمل. ومن أين يا ترى يأتي الإصلاح أو يحصل الأمل وقد اغمض الكفرة الفجرة عيونهم عن واقعهم وواقع الحياة التي يعيشونها وتلامس جميع حواسهم؟

وان الله العليم بالطوايا والخير بما فطر عليه الناس ليعلم أن نمطا من الخلائق قد درج على الانحراف الباطني وأصيب بنوع من الشذوذ الخاص يجعله يتلقى العبرة تلو العبرة والضربة تلو الأخرى ولا يريد أن يبحث عن مأتاها، ولا أن يكلف نفسه مشقة التفتيش عن أسبابها.

هؤلاء واضرابهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين ولا موعظة الواعظين فالويل لهم يوم يجيبهم الجبار بتلك اللطمة الساخرة ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ حقا إن أشقياء التبييت والاضمار لا يفيد معهم الصفح ولا يثمر في قلوبهم الإحسان بل ربما يزيدهم تنمرا وإغراقا في الإثم (وان انت أكرمت اللئيم تمردا) ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ هذا وايم الله ابدع تصوير لنفوس الأشرار الأنكاس، الذين ليس لهم من الرجولة إلا الانتفاخ والانتفاش يضعفون ويتهاكون إذا وقعوا في قبضة القوي الشديد وإذا ما رحم عويلهم واستجداءهم اغرقوا في الضلال والاستئساد وكم من بغاث استنسر وكم من جبان تنمر.

وما اقبح التكلف في كل شيء خصوصاً في أولئك الضعاف للقوة والجبناء للشجاعة لان هؤلاء يتعسفون الطريق ويخططون خبط عشواء فهم في حالة من الغمة والحيرة والتهيه تجعلهم مثار ضحك واستغراب ورثاء ونظير هذه الآية قوله جل من قائل ﴿وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ﴾ هذا حالهم يوم القيامة أما حالتهم في الدنيا فمشاهدة محسوسة، تصيبهم القارعة أو تحل قريباً من دارهم فينتحلون لها أسباباً وهمية إذ ينسبونها للطبيعة تارة وللحظ أخرى ولعدم أخذ الالهة مرة ولتخلي الأنصار والمؤيدين مرات أما أن يقولوا انها بلاء وابتلاء فحاشا لرجولتهم أن تقول ذلك ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ والغريب العجيب انهم اجبن من فراشة وافرق من نعمة، بيد انهم عموا وصموا عن الأسباب والمسببات الحقيقية فأصبحوا كمن يفر من الخطر إليه لأن جنبه أنساه المفر وأعماه عن النور ونظير هذه الآية أيضاً قوله جل جلاله ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ومهما يكن من أمر فان للبداية نهاية وان للإمهال أجلا لا يتعداه فلا بد إذا من أن يأخذ جبار السماء جابرة الأرض أخذ العزيز المقتدر سواء أكان ذلك في الدنيا أم في الآخرة وعندما يفتح عليهم بابا واحدا من أبواب عذاب يصيبهم ما لم يكن في حسابانهم فيصبحون في إفلاس وابلاس وخيبة آمال ولا تنفعهم آنذاك لهفي ولا لواني ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ وإنما الجزاء من جنس العمل ومن زرع السوء لم يحصد إلا الندامة.

وبعد أن ناقش المولى سبحانه وتعالى أولئك الكفرة الملحدين الحساب وفند مزاعمهم كلها وبين مآلهم المؤلم ومصيرهم المفجع ذكر في مقام الامتنان أو التوبيخ ما أمدهم به من وسائل سمعية وبصرية وادراكية كانت تكفيهم للوصول إلى الحق لو استعملوا آلة الوعي والإدراك والتبصر فقال ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

هذه وسائل العلم الثلاث مرتبة حسبما تقتضيه الطبيعة البشرية حتى في اصل الوجود سمع ثم بصر ثم فؤاد، وكم في آيات الله من عجائب يكشف العلم في بعض مناسبات قليلة عن نزر يسير منها يشهد به المنصفون والواعون، فلقد اثبت الطب الحديث أن الطفل عندما يولد يسمع في الثلاثة الأيام الأولى ولا يبصر، ثم يبصر ولا يعي ثم بعد حين من الدهر يصبح قادرا على الفهم شيئاً فشيئاً. وليس هذا الترتيب في

الأطفال خاصة بل هو جاء مع الإنسان في عموم أطوار حياته يسمع عن أشياء فيرغب في رؤيتها ثم يحكم عقله في محتوياتها اذ كل من الذين يستعملون آلة العقل وآلات الابصار الباطني والظاهري وآلة السمع كذلك.

وكم في قوله جلّت كلماته ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ كم فيها من معان دقيقة يدرك بعضها المجرب للعباد الخبير بمركباتهم النفسية ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ان آلة السمع وآلة البصر وآلة الإدراك ما وهبت للإنسان إلا ليستعملها في ادراك الحق والعمل بمقتضاه وإلا كانت وسيلتها معطلة ووجودها كالعدم واصبح صاحبها كالأنعام بل هو أصل سبيلا ولقد صدق الله تعالى إذ قال في هؤلاء في مقام آخر ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾. وليست هذه النعم التي ينظر إليها الإنسان في نفسه هي وحدها التي تثير الانتباه وتستوجب الاعتبار، بل هي مع نعم أخرى عامة ولكنها هامة تستحق أن نجلب نحوها الأنظار وما اكثرها نعم الله على عباده. وما أقسى قلوب العباد إذ تذهل عن خالقها وممدها بتلك النعم وهي في تلك الحالة ذاهلة عن نفس وجودها ودورها في الحياة ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ إنه هو الذي خلقنا فأبدع خلقنا وصوّرنا فأحسن تصويرنا وإنه هو الذي جعل من اختلاف أجناسنا وألواننا ولهجاتنا آية لو كنا من الواعين والمنصفين وان مراحل خلقنا ونحن اجنة في بطون أمهاتنا وأطفال في مهادنا وولدان في مسارح طفولتنا وشباب في أحلامنا ومغانينا وكهول في عزائنا وتصميماتنا وطموحنا وشيوخ في برامجننا ومشاريعنا وحكمتنا واكتناها ثم في طفولتنا الأخيرة الخرفة يوم يرد منا من يرد إلى ارذل العمر ان تلك المراحل المنتظمة لآية على عظمة الصانع وحكمته ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ .

نعم إننا لو تبصرنا وأبصرنا لأدركنا أن الذي خلقنا هو الذي يميّتنا وهو الذي يحيينا وهو الذي إليه نحشر يوم الجمع الأكبر فيجازي من أحسن بإحسانه ومن أساء بأساءته ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ وإن قدرته الباهرة القاهرة لتخول له كل هذا فما الليل والنهار وتعاقبهما في نظام وانتظام وما أودع في كل واحد منهما من خصائص لا يمكن أن يكون وراءها وسببا لها إلا من جعل الليل لباسا وجعل النهار معاشا وجعل النوم بالنهار لا يقوم مقام النوم بالليل ولو كانت المدة أطول والراحة أوفر قلت ما هذا الليل والنهار وكل ما فيهما إلا آية ونعمة لمن أراد أن يتأمل ويستعمل مداركه العقلية للوصول إلى الحقيقة ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ صدقت ربنا وتقدست كلماتك .



الواقع المعاصر وأثره في الأحكام الشرعية

بقلم معالي الشيخ عبد الله بن بيه

رئيس منتدى أبوظبي للسلم

رئيس مجلس الإمارات للإفتاء الشرعي

لقد ظل الواقع مؤثرا دائما في الأحكام الشرعية باعتباره شريك النص في استنباطها. فهو داخل في دائرة النصوص ويتمثل ذلك في عمومات كليات الشرع وإن لم يكن منصوبا في الجزئيات المتناهية فهو مقبول في الكليات المشتملة على جزئيات لا متناهية. سواء عُبِّرَ عنها بالقواعد الأصولية المؤصلة لقوانين الاستنباط كالقياس الذي يواجه ما لا يتناهى من الحوادث، أو عبر عنها بالمقاصد العامة كالعدل والمصلحة العرية عن الاعتبار الخاص. وواقعُ العصر مادام يمثل ضرورات الإنسان وحاجياته وأحواله وأفعاله لا يشذ عن هذه القاعدة العامة.

هذه الدعوى نحتاج في اثباتها إلى الأدلة الشرعية المعتبرة من نصوص الشارع وعمل السلف بعد عصر الوحي أي بعد فترة حياة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بالإضافة إلى القواعد المؤصلة للعلاقة بين الواقع وبين النصوص في استنباط الأحكام.

ولكن قبل ذلك سنحاول أن نعرف الواقع المعاصر ليكون البحث كالتالي:

- تعريف الواقع وبشكل خاص الواقع المعاصر

- أدلة الشرع (النصوص) وعمل السلف والمقاصد والقواعد

- أمثلة وتطبيقات فقه الواقع في القضايا المعاصرة

- وخاتمة: حول ضوابط التعامل مع هذه القضايا

أولاً: تعريف الواقع:

ما هو الواقع الذي يجب فهمه والفقه فيه واستنباط علم حقيقته؟

يقول ابن القيم: ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علماً.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع. ثم يطبق أحدهما على الآخر؛ فمن بذل جهده، واستفرغ وسعه في ذلك لم يَعدَم أجرين أو أجراً.

وبالتالي فإن الواقع حسب عبارة ابن القيم - يعني الإحاطة بحقيقة ما يحكم عليه من فعل أو ذات أو علاقة أو نسبة ليكون المحكوم به وهو الحكم الشرعي المشار إليه بالواجب في الواقع مطابقاً لتفاصيل هذا الواقع ومنطبقاً عليه.

والواقع لغة اسم فاعل من وقع الشيء وجب، ووقع القول ثبت ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾، فالوقوع هو الوجوب والثبوت، فالوجوب يدل على الوجود المؤكد، والثبوت يقابل النفي والعدم، الواقع إذاً هو وجود ثابت، فهو قريب من الحق والحقيقة؛ لأن الحق وجود ثابت وبمعنى من المعاني دائم لا يفنى، ولهذا فمن أسمائه سبحانه وتعالى «الحق». والفعل الواقع هو المتعدي في اصطلاح النحاة.

أما الغربيون فلهم جولات مع الواقع تعريفاً وتدقيقاً وتشذيباً وتشقيقاً، وبخاصة في التخصصات الفلسفية؛ فمنهم من يرى أنه واضح وضوحاً يكون التعريف فيه مدعاةً للغموض والتحريف، فقد جعله «ديكارت»: ضمن «المفاهيم الشديدة الوضوح في ذاتها؛ لدرجة أن كل محاولة لتوضيحها أكثر تقود بالضرورة إلى إغراقها في الغموض».

ومنهم من يشك في وجوده أصلاً وهم المسمون بفلاسفة الشك.

ومنهم من يقول: إنه التطابق بين مقتضيات الوعي من جهة والواقع أو «الشيء في ذاته» *la chose en soi* كما يقول «كانت»، وهو تعريف غير سديد لأنه يُحيل الشيء على نفسه، فلا جنس ولا فصل.

و«كانت» في هذا يريد أن يرفض النظرة الأفلاطونية للواقع، والتي ترى أنه لا وجود له في ذاته بل وجوده في الأفكار باعتبار أن المظاهر المحسوسة للأشياء خداعة ومتغيرة. فالفكر هو الذي يؤسس في النهاية لما هو حقيقي منها، ونذكر هنا النظريات الخمس للغزالي لإدراك الواقع. حيث يدرك عن طريق الحس، والعقل، واللغة، والعرف والطبيعة كما ذكر في أساس القياس.

والواقع هو الإنسان فرداً ومجتمعاً، ولهذا فإنَّ المناطق لا يتحقق إلا بالإنسان ومن خلال الإنسان نفسه فهو المحقق الأول والأخير، لأنه الفاعل والمحل.

ونحن اليوم بحاجة إلى قراءة جديدة للشرع على ضوء الواقع للتذكير بالكليات التي مثلت لبنات الاستنباط بربط العلاقة بين الكليات وبين الجزئيات، وهي جزئيات تنتظر الإلحاق بكلي أو استنتاج كلي جديد من تعاملات الزمان وإكراهات المكان والأوان، أو توضيح علاقة كلي كان غائماً أو غائباً في ركام العصور وغابر الدهور.

وإنَّ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يظان النبراس الدائم، والينبوع الدافق، بهما يستضاء في ظلمة الدياجير، ومنهما يستقى في ظمأ الهواجر، بأدوات أصولية مجربة، وعيون معاصرة مستبصرة.

فالاستنباطات الفقهية القديمة كانت في زمانها مصيبةً، ولا يزال بعضها كذلك، والاستنباطات الجديدة المبنية على أساس سليم من تحقيق المناطق هي صواب؛ -أيضاً- فهي إلى حدٍّ ما كالرياضيات القديمة التي كانت تقدم حلولاً صحيحة، والرياضيات الحديثة التي تقدم حلولاً سليمة ومناسبة للعصر.

فالتطور الزمني والواقع الإنساني يقترحان صوراً مغايرة للصور التي نزلت فيها الأحكام الجزئية، فالواقع مقدمة لتحقيق المناطق. وواقعنا اليوم يفرض قراءة جديدة في ضوء الشرع للتذكير بالكليات التي مثلت لبنات الاستنباط، تحت تأثير ما يمكن أن نسميه بكلي الزمان أو العصر أو الواقع سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وعلمياً وتكنولوجياً؛ فهو واقع فيه اليوم معاهدات دولية، وحدود، وأسلحة دمار شامل، وتعددية دينية وثقافية وإثنية داخل البلاد الإسلامية وخارجها، وتغيرت فيه الولاءات القبلية والدينية إلى أخرى تعاقدية، وصارت السيادة في الواقع الدولي للاعتماد

المتبادل بين الدول، والمعاهدات والمواثيق الدولية شبه حاكمة، وأصبحت العولمة سيدة العالم وليست حالة عابرة يحضر فيها الآخر حضوراً اختيارياً أما اليوم فحضوره وإن كان اختيارياً في ظاهره فإنه في عمقه إجباري. إنه واقع يؤثر في النظم والقوانين ومدى ملائمتها للنصوص الشرعية مجردة عن مقاصد التعليل وقواعد التنزيل.

ثانياً: برهان تأثير الواقع في الأحكام من الكتاب والسنة وعمل السلف

لقد راعى القرآن الكريم الواقع ورتب الأحكام عليه، فراعى واقع الإنسان فشرّع التخفيف في التكليف ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾، ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ﴾ وراعى رد فعل عبدة الأصنام فنهى عن سب الآلهة، قال تعالى ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

وذلك يمثل أصلاً لرعاية الأحوال والعاقبة والمثال والأعراض والأمراض التي تتعاور الإنسان، وما أنواع التسهيلات والتيسيرات والرخص إلا مؤسّسة لاعتبار المقدمة الصغرى المعرفة لطبيعة الواقع والمحققة للمناط.

فقد حقق النبي صلى الله عليه وسلم المناط في مسألة هدم الكعبة لإعادة بنائها: «لولا أن قومك حديثو عهد بكفر لبنت الكعبة على قواعد إبراهيم». وقوله عليه الصلاة والسلام- في بيع الرطب بالتمر-: «أينقص إذا بیس؟ قيل: نعم، قال: إذا فلا». وهو تحقيق يتعلق بطبيعة الذات المحكوم عليها.

كل ذلك يدل على مراعاته عليه الصلاة والسلام لحال الوقت وواقع الزمان والمكان وحقائق الأشياء. ويوجد الكثير من القضايا من هذا القبيل في السنة النبوية. وأهم دليل على ذلك اختلاف أوصاف تصرفاته صلى الله عليه وسلم عندما يتصرف بالبلاغ أو الإمامة أو القضاء أو بالأفعال الجبلية، كل ذلك من باب «تحقيق المناط».

كيف كان الصحابة يتعاملون مع الواقع؟

ويندرج في هذا كثير من عمل الخلفاء الراشدين والصحابة رضي الله عنهم من العدول عن بعض الظواهر الجزئية لواقع تجدد أو مصلحة برزت.

ونكتفي هنا بالإشارة إلى أمثلة معروفة تبرهن على المراد وتدل على المقصود.

1 - من ذلك جمع الصديق المصحف مع تردد بعض الصحابة في ذلك حيث سأل زيد رضي الله عنه: «كيف نفعله ولم يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم». فرد الصديق هو خير. فهذه الخيرية هي المصلحة، وكذلك أیضاؤه بالخلافة لعمر، وهي تصرفات لم تكن مفهومة على البديهة، لكن سرعان ما التزم الجميع بها.

2 - في أيام عمر رضي الله عنه نزلت مسألة الأراضي الخراجية، وعقدت ثلاثة مجالس للشورى، -كما يقول ابن كثير في «البداية والنهاية»-، وكان رأي الإمام فيها راجحاً، وهو رأي الأكثرية، وظلت أقلية على مخالفة رأيه، من هذه الأقلية عبدالرحمن بن عوف وبلال وغيرهما، معتمدين على آية الغنائم في سورة الأنفال، والعمل السابق من تقسيم الغنائم، ولكن المصلحة الراجحة وتغيّر موضوع الغنيمة كل ذلك دعا إلى تحقيق المناط في الواقع الجديد.

وجعل الديوان عاقلة، بناء على تغير واقع العصبية. ووضع الزكاة على الخيل، مع علمه بأنه عليه الصلاة والسلام وأبا بكر لم يفعله، وجعل الخلافة من بعده شوري، كل ذلك كان تحقيقاً للمناط وملاحظة لواقع تغير.

وكان رضي الله عنه كثيراً ما يلاحظ الواقع المتجدد فيعدل عن رأي سابق له، فيختلف العلماء أحياناً بسبب ذلك، فيعتمد بعضهم الرأي القديم ويعتمد بعضهم الرأي الأخير.

3 - في أيام الخليفة الثالث سيدنا عثمان رضي الله عنه حج بالمسلمين فصلى الصلاة الرباعية كاملة دون قصر، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم والخليفان من بعده يقصرون الصلاة في الحج فهي سنة متواترة، فأنكر بعض الناس ومنهم ابن مسعود ولكنه لما وصل إلى مكة أتم الصلاة مع الخليفة، فقبل له في ذلك، فقال: الخلاف شر.

وهكذا كان الفقه عاصماً للصحابة، فصلى الناس مع إمامهم.

وكان عثمان رضي الله عنه ينزل الحكم على وضع فيه عناصر جديدة هي كثرة الداخلين الجدد في الإسلام، ويخاف أن يظنوا أن الصلاة الرباعية أصبحت مقصورة أبداً فقطع الشك باليقين تنزيلاً لا نسخاً. وورث المطلقة في المرض «تماضر زوج عبدالرحمن بن عوف». وأمر بالتقاط الضوأل. وجمع الناس على مصحف، وأحرق ما سواه، على رواية. وأحدث الأذان الأول يوم الجمعة قبل دخول وقت الظهر، لكثرة الناس. ولم يأخذ الزكاة من المال الصامت، الباطن كالتجارة والنقود ووكل زكاتها

إلى أمانة أهل المال ليدفعوها للفقراء خلافاً للخليفتين من قبله، واكتفى بجباية زكاة الأموال الظاهرة الناطقة، كالحيوان والزروع والثمار.

ولم ينكر عليه أحدٌ من الصحابة، ولعل ذلك كان تحقيقاً للمناط في زمنه، وهو زمنٌ توسَّع الفتوح الإسلامية والرخاء فلم يكن بحاجة إلى مزيد من الأموال، أو أنه خاف عليها من خيانة الجُباة، فترك أمرها إلى أهلها، كما تأول أبو حنيفة أنه أناب أصحاب الأموال عنه في دفعها للمستحقين.

وكل ما مضى من عمل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه كان من قبيل تحقيق المناط في الأنواع أحياناً وفي الأشخاص أحياناً أخرى نظراً للظروف الزمكانية.

4 - وفي أيام الخليفة الرابع سيدنا علي رضي الله عنه - وقد قل الفقه وعظم الخطب- بعد اغتيال الخليفة الثالث قال علي: لا يُقتَصُّ من القاتل حتى يجتمع المسلمون على إمام، كما ذكر القرطبي وغيره.

وعلق القرطبي بقوله: ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخيرُ القصاص إذا أدى إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة .

ولكن بعض الناس لم يطع الإمام المبايع فبدلاً من بيعته شنوا الحرب عليه فاعتبر ذلك خروجاً عليه. ولما قبل أمير المؤمنين عليّ التحكيم ثار الخوارج الذين لا فقه لهم، وقالوا: لا حكم إلا لله، فقال رضوان الله عليه: كلمة حق أريد بها باطل. وقد حاور الخوارج وقتلهم بعد أن هيجوا.

وضمن الصنائع بعد أن كانت يدُ الصانع يدَ أمانة، وقال: لا يصلح الناس إلا ذلك. بناء على واقع الناس وضعف حملهم للأمانة.

وذلك هو البرهان على أن الخلفاء الراشدين كانوا يحققون المناط بناء على واقع تجدد، وتبعاً لظروفٍ تغيرت وأحوالٍ تطورت، وأن الفقه في الدين كان عاصماً من الفتنة بُرْهَةً من الزمن وكان مفهوم الطاعة حاضراً في الأذهان.

ولهذا حاول العلماء في القرن الثاني والثالث تَقْنينَ اجتهاد الصحابة وضبطه بآليات اجتهادية، وبعناوين كبيرة ومتداخلة، منها: القياس والمصالح المرسلة والاستحسان وسد الذرائع، والاستصحاب، وتندرج السياسة الشرعية في الاستصلاح، وسد الذرائع، بالإضافة إلى دلالات الألفاظ.

وبعبارة أخرى، فإنَّ جدلية النصوص والواقع إذا كانت مؤطرة بالمقاصد الكلية تنتج الإصابة في الأحكام والصواب في الاستنباط.

ثالثاً: الواقع يفرض نفسه (تطبيقات وأمثلة معاصرة)

لا يخفى على الجميع مقدار التغيير الذي شهدته البشرية في هذا العصر والمسائل المستجدة التي ظهرت، في عالم متغير من الذرة الى المجرة، مما يستدعي من العلماء استعدادا واجتهادا، لمواكبة المسيرة البشرية في عصر تمازجت فيه الحضارات وتزاوجت فيه الثقافات واشتبكت فيه المصالح والعلاقات وأصبح مصير البشرية مشتركا وضرورة لا يخطؤها البصر ولا تنبو عنها البصيرة.

ومن أمثلة هذه النوزال والمستجدات، تقنيات الجينوم البشري وما اجترحت من معضلات أخلاقية، إذ أتاح العلمُ لنفوس عطشى إلى الاكتشاف التدخل في خلايا الأجنة واقتحام شفرة النطفة الأمشاج لتعديل الجنين بزيادة الهرمونات، وقضايا الاستنساخ وما تنطوي عليه من مثالات لا تزال وراء أستار الغيب التي لا يعلمها إلا من ﴿يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ سبحانه وتعالى.

فالمجامع الفقهية أمام التلقيح الصناعي والرحم المستعارة والتهجين وشهادة الجينات في تناكر الأزواج وتغيير الجنس في حيرة. بله القضايا الاقتصادية وتحديات المضاربات وتسليع النقود وتسييل العروض وسرعة المداولات والرواج في الأسواق وإبرام الصفقات في المراكز العالمية للاقتصاد التي لا تحترم الوضوح «الشفافية» التي تدرأ خطر الغرر وغائلة الجهالة.

والواقع يفرض نفسه في قضايا شرعية بلا استئذان. كمشكلة بداية أشهر العبادة ونهايتها كل سنة، وإن كنت ممن يقول: بتقديم الرؤية مع التأكيد على العدالة والاستكثار من الشهود، والواقع فرض قبول الناس بإرسال المركبات إلى الكواكب بعد أن كان البعض يعتبره كفرا انطلاقاً من مفهوم الصعود إلى السماء المذكور في نواقض الإيمان. قال خليل: «أو ادعى أنه يصعد السماء أو يعانق الحور».

فهل سنعرض عن الحكم بشهادة القافة لتحقيق المناط بـDNA قال خليل: «وإذا ولدت زوجة رجل وأمة آخر واختلطتا عينته القافة وعن ابن القاسم فيمن وجدت مع ابنتها أخرى لا تلحق به واحدة منهما، وإنما تعتمد القافة على أب لم يدفن وإن أقرّ عدلان بثالث ثبت النسب، وعدل يحلف معه، ويرث ولا نسب».

لكن هناك حالة التناكر التي فرض الشرع فيها اللعان لوجود مقصد آخر هو الستر ومع صراحة النص فلا تصح فيها الوسائل العلمية.

لكن يمكن أن يحقق المناط بالوسائل العلمية لتعليق العمل بمقتضى القيافة في فروع اختلاط الأولاد في المستشفيات أو في الأحوال الطارئة، أما الشهادة في الاستلحاق والإقرار به فمحل نظر واجتهاد.

والواقع فرض قبول الصلاة في الطائفة، وتغيير مفهوم السجود على الأرض أو ما اتصل بها، على حد ابن عرفة.

والواقع فرض على المجامع الفقهية الاعتراف بالموت الدماغي بعد أن كان الفقهاء مطبقين على أن الموت هو موت القلب. والواقع جعل الحامل لم تعد بعد ستة أشهر مريضة مرضاً مخوفاً، محجوراً عليها كما هو مذهب مالك.

إن كثيراً من القضايا ينظر إليها من خلال الأدلة الفرعية بنظر جزئي، وهي قضايا تتعلق بكليّ الأمّة؛ كمسألة جهاد الطلب، وتصنيف الدار والعلاقات الدولية المالية، التي لا تحترم أحياناً من ماهية العقد إلا ركن التراضي الذي حصر فيه إمام الحرمين صحة العقد في حال تصور خلو العصر والقطر عن عالم.

فالواقع الجديد يقترح صورة مغايرة للصورة التي نزلت فيها الأحكام الجزئية، ومعنى قولنا الجزئية أن الأحكام الكلية التي يستند إليها التنزيل تشمل الصورة القديمة والحديثة.

إنّ الظروف الواقعية والمصالح الإنسانية هي المعيار الذي -بالاستقراء- كان حاكماً في التصرفات مندرجاً في المقاصد الكلية.

ولنأخذ أمثلة من مجال المعاملات، فمن الضروري مراجعة جملة من المفاهيم في البيئة الحديثة وتحليل العقود الجديدة وتفكيكها لسبر ملاءمتها للشروط والضوابط الشرعية.

فمن هذه المفاهيم:

الغرر في العقود: الكثير من العقود تتم في غيبة المعقود عليه، دون أن تكون سلماً بشروطه، فهل هي من بيع الغائب، أو من بيع غاب فيه البدلان؟

وبهذا الخصوص يمكن الاستفادة من بعض مفردات مذهب مالك بن أنس الذي وسّع البيع بمعنى من المعاني فجعل مفهوم البيع هو العقد دون القبض على المشهور

من المذهب وضمر الربا في تعامله مع قوله تعالى ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ مع الاستدراك على مسائل سد الذرائع التي تمثل الممنوع من الدرجة الثانية، ليكون ذلك منبهاً على ما تختزنه المذاهب الإسلامية المتعددة من إمكانيات هائلة ومرونة عالية تسمح بالتعامل مع العصر.

وفي هذا السياق، يمكن العمل على معيار لبيع الديون يراعي الانضباط المطلوب ويسهم في مواجهة التحديات التي تطرحها السوق مثل عقود البترول والسلع المختلفة في الأسواق الدولية وذلك وفقاً لمذهب مالك الذي يجيز ذلك مع شيء من الانضباط تمثله الشروط الخمسة لبيع الدين ومنها ثبوت الدين وإمكانية الحصول عليه في وقته لأنه يعتبر الدين مالاً موجوداً ويقدر المعدوم موجوداً.

وابتداء الدين بالدين الذي نعني هنا ليس هو بيع الكالئ بالكالئ، فبيع الكالئ بالكالئ عند مالك هو فسخ دين في دين، وأما ابتداء الدين بالدين فهو جائز عنده بشروط معلومة في السلم ومذهب سعيد بن المسيب جواز ذلك مطلقاً. حيث نقل عنه ابن يونس في كتابه «الجامع لمسائل المدونة» جواز تأجيل البدلين، وسعيد بن المسيب كما يقول الشيخ ابن تيمية أفقه الناس في البيوع، وهو عند أحمد بن حنبل أفضل التابعين.

كما يمكن الأخذ ببيع الغائب الذي يجيزه مالك ببعض الشروط، باعتبار أن الخبر بمنزلة النظر، وهي قاعدة نادرة ذكرها الحافظ أبو بكر بن العربي في كتابه «القبس»، أي الإكتفاء بالخبر عن النظر، وبالتالي أجاز بيع الغائب بالوصف، والمغيب في الأرض من الثمار.

ولهذه الآراء الواردة في مذهب مالك أدلتها وأصلها في عمل أهل المدينة وليس هذا محل إيرادها. لكن المراد أن هناك أسساً يمكن البناء عليها لتطوير معايير جديدة تخدم التمويل الإسلامي مع الابتعاد عن المحاذير التي تتنافى مع التعاملات الإسلامية وهي الربا والغرر والجهالة وأكل أموال الناس بالباطل أو الثلاثي النكد كما نسميه، والتي ذكرها الحافظ أبو بكر بن العربي وسبقه إليها القاضي عبد الوهاب في كتابه التلقين.

ولا شك أن مثل هذه المقترحات قد تحتاج إلى ورش ولجان عمل لتطويرها وتعميق النظر فيها، لكن ذكرناها هنا للتنبيه على مكنونات الشريعة السمحة وإمكانات الفقه الواسعة.

رابعاً وأخيراً: ضوابط التعامل مع هذه القضايا (محددات المنهج):

وهنا سنشير سريعاً إلى بعض القواعد والضوابط التي ينبغي للمتعامل مع النوازل والمستجدات الأخذ بها وذلك بالتعامل مع النصوص من خلال المقاصد والقواعد والواقع والوقائع، فيفرق بين العبادات التي مبناه على التسليم وبين المعاملات التي مدارها على التعليل المعقول، والتصرف وفق روح القيم النازمة للشرعية المطهرة وهي: الحكمة، والمصلحة، والعدل، والرحمة. ومن هذه الضوابط:

1 - النظرة الشمولية التي تعتبر الشريعة كلها بمنزلة النص الواحد: ونحن هنا ننطلق من مسلمة أن نصوص الشريعة بمنزلة نص واحد في نظام الاستدلال والاستنباط.

وقد نبه الشاطبي على ذلك بقوله: وإنما يكون متشابها عند عدم بيانه، والبرهان قائم على البيان وأن الدين قد كمل قبل موت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك لا يقتصر ذو الاجتهاد على التمسك بالعام مثلاً حتى يبحث عن مخصصه، وعلى المطلق حتى ينظر هل له مقيد أم لا؛ إذ كان حقيقة البيان مع الجمع بينهما؛ فالعام مع خاصه هو الدليل، فإن فقد الخاص؛ صار العام مع إرادة الخصوص فيه من قبيل المتشابه، وصار ارتفاعه زيغاً وانحرافاً عن الصواب.

2 - الجمع بين النصوص التي يوحى ظاهرها بالتعارض.

3 - الموازنة بين الجزئي والكلّي: وهذه الموازنة ضرورية لتفادي صورة أخرى من صور الاجتزاء أي: الاكتفاء بالجزئي والإعراض عن الكلّي، وعدم فهم التجاذب الدقيق بين الكلّي والجزئي، فالشريعة ليست على وزن واحد، فلا هي مجموع الأدلة الجزئية، ولا هي مجرد كليات عائمة، أو قيم مجردة، وبالتالي لا ينظر إلى الجزئي إلا من خلال الكلّي، كما لا قوام للكلّي إلا بجزئياته، مع مراعاة أنه حال التعارض بينهما لا الكلّي يقدم بإطلاق، ولا الجزئي كذلك، وذلك راجع إلى ميزان المجتهد الذي يستخدمه في كل موضوع.

4 - عرض الخطاب الأمر «التكليف» على بيئة التطبيق «خطاب الوضع»:

وهذا ضمن البيئة الأصولية لعملية تحقيق المناط والمجال الناظم للدلالة التي تحوطها فالخطاب الشرعي قسمان: خطاب تكليف، وخطاب وضع. فالقسم الأول أحكام معلقة بعد النزول على وجود شخص، هو الوجود الخارجي المركب تركيب الكينونة البشرية في سعتها وضيقها، ورخائها وقترها، وضروراتها وحاجاتها، وتطور

سيروراتها، بإطلاق الأحكام مقيد بقيودها وعمومها مخصوص بخصائصها، ولذلك كان خطاب الوضع -الذي هو الأسباب والشروط والموانع والرخص والعزائم والتقديرات- ناظماً للعلاقة بين خطاب التكليف بأصنافه: طلبُ إيقاع وطلبُ امتناع، وإباحة، وبين الواقع بسلاسته وإكراهاته.

وبعبارة أخرى، خطاب الوضع هو البيئة الأصولية لإنزال الحكم، وهو الذي يحوط خطاب التكليف ويكلؤه، ولهذا كان خطاب الوضع بالمرصاد لخطاب التكليف، ليقيد إطلاقه، ويخصص عمومه، فقيام الأسباب لا يكفي دون انتفاء الموانع، ولن تُنتج صحة أو إجزاء دون توفر الشروط سواء كانت للوجوب، أو شروط الأداء أو الصحة، فلا بد من تحقيق المناط للتدقيق في ثبوت التلازم طرداً وعكساً.

5 - مراجعة سياقات النصوص

6 - اعتبار العلاقة بين الأوامر والنواهي ومنظومة المصالح والمفاسد.

7 - مراعاة التطور الزمني والواقع الإنساني.

8 - النظر في المثلالات والعواقب: فالمآلات مسلك من مسالك معرفة الواقع والأدوات التي بإمكانها أن تكتشف المستقبل، بعد أن يكون الناظر قد عرف الواقع بكل تضاريسه ومتوقعاته ليضمن التوازن في تنزيل الحكم عليه ومعرفة توجه المستقبل من خلال معطيات الحاضر التي أفرزها الماضي، إنه توقع عقلائي بعيد عن التوهم أو عن معنى الاستباق وإن تقاطع معه، يتأسس على واقع يحقق ويثبت العلاقة بين الأحكام وبين الوجود المشخص، ولا يهمل فيه أي عنصر من عناصر العلاقة بينه وبين الدليل الشرعي الذي يقع التدقيق في شقيه: الكلي والجزئي، كما يدقق في تقلبات وغلبات الواقع والأثر المحتمل للحكم في صلاحه وفساده، بحيث لو تنزل بالفعل لكان محمود الغب جار على مقاصد الشريعة، والمقاصد قبلة المجتهد كما يقول الغزالي في تحصين المآخذ.

9 - استحضار البعد الإنساني والانتماء إلى الكون.

10 - استغلال الإمكان المتاح في الشريعة. من خلال المصالح أو المقاصد أو من خلال مراعاة اختلاف العلماء.

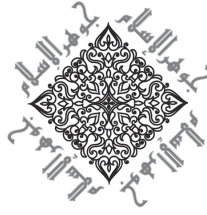
11 - التعامل مع مقصد التيسير مرجحاً عند تعارض الأدلة كما ذكر بعض الأصوليين. وكما فصلنا في كتابنا (صناعة الفتوى) - فاستعمال الرخص عند قيام الأسباب، مؤصل من الأصوليين، ومن قاعدة إشفاق المفتي على أهل ملته، كما يقول الخطيب البغدادي لأن الإعانات مخالف لتيسير الشرع.

هذه المنهجية التي ندعو إليها، هي منهجية من رحم الشريعة، كانت موجودة وممارسة في واقع الحياة، وإن كانت اليوم غائبة عن الذاكرة الجمعية فإننا نريدها أن تعود مرجعية للعلماء كما كانت من قبل، ولم يكن يشذ عنها إلا المنشقون الخارجون عن المجتمع وعن الأمة الذين لهم في الشرع وضع محدد وصفات معينة يتحقق بها المسلم من أمرهم كما بينتها نصوص الشريعة.

العنوان الأصولي لفقهاء الواقع هو تحقيق المناط:

تحقيق المناط يمثل التحقق من مناط معين وهو العلة لتنزيل الحكم عليه فتحقيق المناط بوصفه الاجتهاد الثالث كما يقول الشاطبي، لا ينقطع فيه الاجتهاد لانه مسايرة للزمان والمكان.

وفي ختام هذه الكلمة كان لنا في مجلس الإمارات للإفتاء الشرعي جهد واجتهاد معتبر في إصدار مجموعة من الفتاوى والبيانات خلال جائحة كورونا التي لم يكن منحى من مناحي الحياة بمنأى عن تبعاتها وآثارها لتوضيح الموقف الشرعي من عدد من القضايا المستجدة التي أثارها الجائحة: كقضايا صلاة الجماعة والتروايح والعيدين، وكقضايا صوم المرضى ومصابي كورونا، وتقديم الزكاة أو تأخيرها والحج، وأصدرنا فتوى حول استخدام اللقاح المضاد لفيروس كورونا، وغير ذلك من الفتاوى التي اعتبر فيها المجلس تغيير الواقع مؤثراً ومرجحاً، وأعمل الاستحسان وهو العدول عن القياس إلى ما هو أرفق بالناس على حد عبارة بعض الأحناف. كما نظم المجلس بالتعاون مع رابطة العالم الإسلامي مؤتمراً دولياً حول «فقه الطوارئ» جمع فيه العلماء من مختلف القارات لتحقيق المناط في واقع الجائحة ومناقشة ما أثارته من أسئلة فقهية في جميع المجالات من عقائد وعبادات ومعاملات، موضحين يسر الإسلام وسعة الشريعة وقدرتها على استيعاب مصالح الناس في مواجهة الجوائح والأزمات.



التراث وتحسين المجتمع

بقلم فضيلة الأستاذ الدكتور أبو لبابة الطاهر صالح حسين

رئيس جامعة الزيتون سابقاً - عضو مجمع البحوث الإسلامية - الأزهر - القاهرة.

إنّ ما يشيعه دعاة التفتّح المطلق والعصرنة غير المشروطة هو أنّ التنمية والنهوض رهيان بنسيان الماضي وتراثه، وإيصاد بابه وفتح الأبواب على مصاريحها أمام التيارات الحديثة حارّها وقارّها فهي السبيل الوحيدة للتقدّم واللاحق بركب الغرب المتفوّق علمياً وتكنولوجياً، وصناعياً واقتصادياً وسياسياً وعسكرياً... بينما الأصوب هو أن نستضيء في معاركنا التنموية النهضوية بتجارب التراث ونستمدّ من كنوزه الكثيرة دروساً وعبراً نستعين بها على فهم الحاضر ومشكلاته ونستأنس بتجاربه في حلّ المعضلات التي تواجه مشروعات التنمية الراهنة أو المخطّط لها، فتجاوز الآثار السلبية وارتداداتها ومضاعفاتها بالاستفادة من وقائع الماضي التي حفظها لنا التراث.. على أنّه قبل الماضي قدماً في تناول الموضوع يحسن بنا تحديد مفهوم التراث وضبط معانيه ودلالاته؟

إنّ الجذر الذي اشتقت منه عبارة تراث يعود إلى مادة «الواو والراء والثاء»، والتراث والورث (بكسر الواو وفتحها) والإرث، والميراث كلّها مصادر للفعل الثلاثي المجرّد ورثَ يرثُ (بكسر عين الفعل في الماضي والمضارع)، نقول: ورث الرجل فلاناً إذا انتقل إليه ماله بعد وفاته.

وأصل التراث «وَرَاث»، فقلبت الواو تاء⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ [89 الفجر: 19]، أي تأكلون الإرث بشهية شديدة بدون مراعاة حقوق الغير وبدون سؤال عن مصدر هذا الميراث أهو حلال أم حرام؟

فعبارة التراث هي كل ما تركه لنا أسلافنا السابقون من علوم ومعارف وآداب وفنون وآثار وغيرها من عناصر الحضارة والتمدن، غير أن دلالتها الاصطلاحية المتداولة اليوم بين الدارسين تنصرف إلى الموروث الفكري الذي تراكم عبر القرون وطوال تاريخ الأمة. ومن هنا جاز لنا تعريف التراث بالقول: «هو كل ما ورثناه عن الأوائل والأواخر من أسلافنا العرب والمسلمين من إنتاج فكري»، ويذهب بعض الباحثين إلى أن المراد بالأواخر «هم من سبقونا.. حتى ولو كان الواحد منهم قد رحل عنا منذ سنوات قليلة».

ويمثل هذا التراث جهد الأمة وجهادها ومكابدة أبنائها اليومية وتاريخها بكل ما عاشته من انتصارات وانكسارات، وما مرت به من أطوار قوة وتوئب وصعود، وما ألم بها من فترات ضعف وخمول وانحدار، فهو تراث حافل بالدروس والعبر، ويعبج بالمضامين التي ينبغي أن تقف عليها أجيال الخلف لتدرك حقيقة ما هي عليه وطبيعة ما ورثته، وما ينتظرها وما يحاك لها، لأن حاضرها وثيق الصلة بماضيها وحلقة من حلقات سلسلة تاريخها الطويل، ومرآة تعكس نتائج ماضيها المشرق أحياناً والمكفهر حيناً آخر.

أما نسبة التنمية والنهوض والتقدم من التراث فهي العلاقة التي تربط بينهما والمتمثلة في الدروس والعبر المستفادة من التجارب الغنية التي يحفل بها تراثنا فتتلافى الأخطاء التي حصلت في الماضي ونتجنب ما يعوق مسيرتنا نحو تحقيق الترقى والتقدم بالأمة والأوطان إلى مستويات أزكى وأفضل.

ولا يخفى أن للتنمية شروطها المادية والموضوعية والروحية والنفسية، وقد علمنا التاريخ وتراثنا، أن أي مشروع إصلاحى تنموي لن يحقق أهدافه إلا إذا خُطط له بروية ووفرت له أسباب النجاح والتي ينبغي أن يكون تفاعل القاعدة الشعبية العريضة بكل ما تمثله من مخزون روحي في مقدمة هذه الأسباب، أي أن يكون مشروع التنمية

(1) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني [ت 425هـ]: 863-864 (ط 2 / 1418هـ/ 1997م، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت).

مشروعاً لا يتعارض مع عقيدة الأمة وإيمانها وقيمتها فتبناه وتخدمه وتحميه وتدافع عنه. لأنه يعكس ذاتها وهويتها ويخدم مستقبلها.

أما إذا كان المشروع التنموي فوقياً نخبوتياً يغفل مصلحة جماهير الأمة بكل ما تمثله من عقيدة وقيم وأعراف ودون اعتبار لتجارب الماضي، فإن مآله الفشل الذريع. وفي ظني فإن جلّ مشروعات التنمية التي استحدثت في البلاد العربية لم تُحقق النتائج المرجوة منها، لأنها مشروعات مُنبَتة لا تستجيب لطموحات الأمة، بل فإن الكثير منها يعارض عقيدتها وقيمها وهويتها. والأمثلة على ذلك كثيرة ومحنة كتجربة التعاوض في تونس التي كانت نتائجها كارثية، وكالتجارب الاشتراكية التي هزّت الكثير من المجتمعات المسلمة من أعطافها وورثتها المزيد من البؤس والمرارة.

مواقف الدارسين من التراث: إن بعض الاتجاهات الإيديولوجية، والتيارات الفكرية التي تخرّجت في مدارس الرهبان، وصنعت في أحضان الغرب تدعو إلى التحرّر من التراث وتعتبره قيداً ثقيلاً يحول دون التحديث والتقدم. وقد تنطّرف في دعوتها إلى درجة تنتكّر معها لكل ما هو قديم دون تمييز صالحه من طالحه وضارّه من نفعه. ويرى فريق آخر أن التراث يمثل جزءاً من تاريخ الأمة وآثارها وحضارتها، وأن التحرّر منه يعدّ تقييداً في جزء هامّ من حضارتها، بل من مقدّساتها وهويتها وشخصيّتها ووجودها.

على أنّه لا بدّ من التمييز في التراث بين نصوص الإسلام المقدّسة الثابتة ممثلة في كتاب الله والسنة الصحيحة النسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وبين تفاسير وأفهام الشارحين لها واجتهاد المجتهدين، فبقدر ما ينبغي احترام النصوص المقدّسة وصدّ كلّ محاولة للنيل منها بتحريفها أو قراءتها قراءة متفلّنة من الضوابط المتعارف عليها عند أهل العلم، والتي تسعى أن تُصدر أحكامها خارج دائرة الأصول المرعية على غرار ما يفعله بعض غلاة العلمانيّين المتغربيّين والحدائيّين المهوسين، فإنّ الأفهام البشرية واجتهادات الباحثين ينظر إليها باعتبارها مُجرّد رأي يؤخذ منه ويردّ، وقد قال أئمة السلف: «كلُّ يؤخذ من قوله ويردّ إلا صاحب هذا القبر» يريدون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنّه لا ينطق عن الهوى ومعضوم عن الزيغ والخطأ.

وتراثنا الإسلاميّ يمثل جانباً من تاريخ الأمة بكلّ ما عاشته من انتصارات وانكسارات وما حقّقه من إنجازات علميّة وحضارية. وإنّ العودة إلى هذا التراث ودراسته واستبطان أسرارهِ والاستئناس بتجاربه المتنوّعة تعيننا على فهم الأحداث

التي نعيشها وتساعدنا على تحصين أنفسنا ومجتمعاتنا من المخاطر المترتبة بنا ذلك أن أغلب الشبه التي تحاك حول مقدّساتنا والمحاولات المتكرّرة لتضليل الناس عن منهج الله الأقوم، والمساعي الظاهرة والخفية لإبعاد هذه الأمة عن أسباب قوّتها واستعادة مجدها وعزّتها، وإجهاض محاولاتها الجادّة للنهوض والتنمية والأخذ بمقوّمات الإقلاع العلمي والحضاري إنّما هي زروع مُرة لبذور سامّة غرسها أيدي أئمة منذ عقود من الزمن أيام كان المحتلّ الصليبي جاثماً على صدر البلاد يتحكّم في مُقدّراتها ويحاول أن يرُسّم لها مصيرها بطريقته التي تخدم أهدافه الجشعة في الهيمنة على ثرواتها وتدجين أبنائها وتربيتهم على التبعية له والخضوع لإرادته واختياراته.

إنّ الأمة الإسلاميّة في مشارق الأرض ومغاربها تصبو اليوم إلى الحرّيّة وتحلم بالديمقراطية والعدالة والمساواة، وتسعى للحصول على حرية الكلمة وإبداء الرأي لتحقيق الوحدة والقوّة والنماء.

ونقرأ في تراثنا أنّ سنّة الله التي لا تتخلّف تقضي بأن لا شيء يوهب بلا تضحيات وبدون صبر ومصابرة، فالمطالب العالية والأهداف السامية النبيلة كالديمقراطية والحرّيّة والعدالة والمساواة والرخاء لا تُنال بالتمني وإنّما تؤخذ من يد حاجبها عن الشعوب وحارميها منها، غلاباً، ونجد تصديق ذلك في تراثنا البعيد في تاريخ الرعيّل الأوّل من الصحابة الأبرار، فإنّهم لم يحصلوا على حرّيّة التدين وحقّ الإصداع بعقيدة التوحيد في محيط الشرك، وتحقيق إرادة الله في الأرض إلا بما قدّموه من تضحيات جسام، فقد ضحّوا بأموالهم وأرواحهم ولاقوا التعذيب والقهر والإذلال وهجروا في سبيل الله أوطانهم وأهاليهم بقلوب صابرة وإيمان وعزم لا يلين. ولنا في صهيب بن سنان الرومي⁽¹⁾، وأبي سلمة بن عبد الأسد وزوجه أم سلمة وعشرات من الصحابة الأبرار عند هجرتهم⁽²⁾، أمثلة رائعة في التضحية والفداء ونصرة حقّهم في حرية المعتقد.

وحرّيّة أقطار الغرب الإسلامي في العصر الحديث لم تتحقق بالتوسّل ولا بالتسوّل وإنّما بحد السنان وبالتضحيات الجسام بالدماء والأرواح والأموال وبالزجّ بالمناضلين المجاهدين في السجون وتشريدهم في المنافي والمحتشدات، وتراثنا

(1) سيرة ابن هشام: 1/ 121، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، بدون رقم طبعة ولا تاريخ.

(2) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة: 1/ 459.

حافل بصفحات مشرّفة في جهاد أبناء الغرب الإسلامي واستبسالهم في افتكاك حقوقهم المسلوبة وحرّيتهم المصادرة واسترداد كرامتهم المهذرة وثروات بلادهم المنهوبة ولنا في ثورة غرة نوفمبر 1954 أجلى دليل.

ولهذا النضال وهذه المنافحة مثيلات في تاريخنا وتراثنا فالعبيديّون الباطنيّة حينما استولوا على إفريقية سنة 297 هـ بقيادة إمامهم الضال المضلّ عبيد الله الشيعيّ الملقب بالمهديّ، حاولوا تغيير الملة ونشر الضلال وإحداث الفساد، فلم يستكن الشعب إلى المذلة وإنّما قاوم الغاصب بمقاطعته ومقاطعة عمّاله وقضاته ومجادلته وإقامة الحجّة عليه وبالامتناع عن دفع الضرائب والإتاوات له، ثم أخيراً بمقاومته بقوة السلاح⁽¹⁾. وكان لعلماء الأمة وأهل الفكر فيها دور فاعل في التصديّ للتحديات الفقهية والعقيدية ولأباطيل الرافضة وتمويهاتهم وضلالتهم عبر مساجلات مشهودة بين علماء السنّة كأبي إسحاق بن البرذون الذي لم يكن في شباب عصره أقوى على الجدل والمناظرة وإقامة الحجّة على المخالفين منه⁽²⁾، وكأبي عثمان سعيد بن الحدّاد ت 302 هـ الذي « كان يرّد على أهل البدع المخالفين للسنّة، وله في ذلك مقامات مشهودة وآثار محمودة، ناب عن المسلمين فيها أحسن مناب، حتى مثله أهل القيروان بأحمد بن حنبل أيّام المحنة »⁽³⁾.

وحينما اشتدّت وطأة الرافضة الباطنية، سأله التقيّة فأبى وقال: « لقد أريبت على التسعين ومالي في العيش من حاجة، وقتيل الخوارج خير قتيل، ولا بدّ لي من المناظرة والمناضلة عن الدين، وأن أبلغ في ذلك عذراً ». وقد سئل في إحدى المناظرات: « كيف تفضّلون على الخمسة أصحاب الكساء⁽⁴⁾ غيرهم - يقصد أبا بكر - ؟ فقال ابن

(1) انظر موقف متصوفة إفريقية وزهادها من الاحتلال العبيديّ أبو لباه حسين 23-39، ط 1، 1399 هـ / 1979 م، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض. [والعبيديون يظهرون الرفض ويبطنون الكفر، جعلوا من إمامهم عبيد الله المهديّ ت 322 هـ نبياً، ثم ألّهوه، وقد سبّوا الصحابة، وسكنوا عن الكباثر، وأحلّوا المحرّمات، فأكل الخنزير في عهدهم، وشربت الخمر، واستهزئ بأحكام الدين، وسجنوا من خالفهم من العلماء والوطنيين، وقتلوا الكثير منهم ومثّلوا بهم].

(2) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان - أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الدباغ 177/2، ط 2، 1388 هـ / 1968 م، مكتبة الخانجي، مصر.

(3) موقف متصوفة إفريقية وزهادها من الاحتلال العبيديّ: 29

(4) حديث أصحاب الكساء رواه الترمذي من حديث أم سلمة رضي الله عنها: «أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جلّ على الحسن والحسين وعليّ وفاطمة كساءً ثم قال: « هؤلاء أهل بيتي وخاصتي أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » السنن: 5 / 699 [3871].

الحدّاد: «أيهما أفضل خمسة سادسهم جبريل أو اثنان ثالثهما الله؟»⁽¹⁾. وحينما اجتمع أبو عثمان سعيد بن الحداد مع الشيعي في قصر بني الأغلب برقادة، قرأ الشيعي: ﴿قَتَلَك مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [28 القصص: 58]، فتلا أبو عثمان: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ [14 ابراهيم: 45].

وقال له عبيد الله المهدي يوما: «إنّ محمّدا ليس بخاتم الرسل!!» فقال له: «وأيّن ذلك؟»، قال: في قوله تعالى ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [33 الأحزاب: من الآية 40]، فقال ابن الحدّاد: «هذه الواو ليست من واوات الابتداء، وإنّما هي من واوات العطف، كقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [57 الحديد: 3].

فترات المغرب الإسلامي حافل بمشاهد التصدي للمحتلين ولأهل الأهواء، ودحض شبه المناوئين للعقيدة الصحيحة وفضح تمويهاتهم. وبالإمكان الاستفادة من تلك الدروس في مواجهة أعداء الأمة المُحدّثين رغم اختلاف العصر لأن هدفهم واحد وتمويهاتهم واحدة، رغم ما تتسرّب به مؤامرات اليوم من غلالات عصريّة، إلا أنّها لا تستطيع ستر عوراتها المكشوفة لكلّ ذي عينين.

ونقرأ في تراثنا الحديث نسبياً مواقف مشرّفة من غارة ظالمة على ديار المسلمين تستهدف عقيدتهم وهويّتهم وتنصير بلادهم، فبمناسبة مرور مائة سنة على احتلال الجزائر، وخمسين سنة على احتلال تونس، تعرّضت تونس إلى حملة صليبيّة تاسعة قادتها كنيسة قرطاج عبر المؤتمر الإفخارستيّ أيام 7 - 8 - 9 ماي 1930م [8 - 9 - 10 ذي الحجة 1448 هـ] في أطلال قرطاج وهي ميدان الحملة الصليبيّة الثامنة⁽²⁾ التي قادها سنة 1270م لويس التاسع ملك فرنسا.

وقد صرف على هذا المؤتمر المؤامرة، آلاف الفرنكات من أموال الأوقاف الإسلاميّة!!، ومن الميزانيّة التونسيّة، وإمعانا في التمويه والتغيير جعلت اللجنة

(1) يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا نَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [9 التوبة: 40]. وإلى قول النبي صلى الله عليه وسلم «لأبي بكر رضي الله عنه وهما في الغار: «وما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما» - السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة - د. محمد أبو شهبه 1/ 482، ط 4، 1418 هـ/ 1998م، دار البشائر - جدة - العربية السعودية.

(2) اعتبرها ظفر الإسلام خان في كتابه «تاريخ فلسطين منذ أوّل غزو يهوديّ حتّى آخر غزو صليبيّ»، حملة تاسعة: 184 [ط 5 - 1406 هـ/ 1986م دار النفائس بيروت - لبنان]

الشرفيّة للمؤتمر برئاسة الباي أحمد بن عليّ بن حسين [1929 - 1942م] الملك السابع عشر في الأسرة الحسينيّة، كما أقحم في هذه اللجنة باسمي شيخ الإسلام [حميدة بيرم]، ورئيس الفتوى [محمد الطاهر ابن عاشور] اللذين تفصّيا من هذه المهمّة الصليبيّة وامتنعا عن المشاركة فيها لتنافيها مع منصبيهما. وقد تنادى للمؤتمر آلاف الرهبان والراهبات من شتى أنحاء العالم، كما جندوا تلاميذ مدارس الرهبان ذكرانا وإناثا، وقد قاموا بتظاهرات استفزازيّة للإسلام والمسلمين، حاملين أعلام الكنيسة مرتدين زيّ جنود الحملة الصليبيّة الثامنة، مردّدين الأناشيد الكنائسيّة عاملين من خلال الكتابة والدعوة المباشرة والدعاية على تحقيق آمال لويس التاسع في حملته الصليبيّة الفاشلة على تونس سنة 1270م، وقد أطلقوا على حملتهم هذه اسم «حملة صليبيّة سلميّة ملؤها الكرم المسيحيّ! والعقيدة النيرة!! والمحبّة!!». فماذا نقرأ في تراثنا عن هذه الغارة الصليبيّة؟ وما هي ردود فعل المسلمين إزاء هذا الاستفزاز الصارخ لعقيدتهم ومشاعرهم؟

إنّ الصحف العربيّة الوطنيّة الصادرة زمن الحملة سجّلت مواقف إيمانيّة ووطنيّة رائدة، فقد تحدّثت عن تصدّي طلاب جامع الزيتونة لتلك الغارة بالمظاهرات المعارضة الغاضبة، والمهرجانات الخطابيّة والشعارات المندّدة بهذا العمل العدوانيّ، وبتحرير المقالات التي تفضح مخطّطات الكنيسة المدعومة بقوة السلطة الاستعماريّة المحتلّة. كما أنّ كتاب «ظاهرة مريبة في سياسة الاستعمار الفرنسيّ» الذي نشره مكتب الأخبار التونسيّة بالقاهرة سنة 1349هـ رصد تلك المؤامرة وكشف عوارها وأورد ردود فعل الشعب التونسيّ ووطنيّيه المخلصين، المناهضة للحملة، التي اعتبرها حملة صليبيّة تاسعة تعمل لتجديد مأساة الأندلس في شمال إفريقيا. وقد أفلحت هذه المواقف الإيمانيّة في إحهاض مخطّطات الحملة الصليبيّة الاستعماريّة، وإفشال أهدافها.

وما تزال الساحة الإسلاميّة تشهد، ومنذ عقود من الزمن، حملة شعواء ظالمة على فريضة الحجاب⁽¹⁾، تتكاثف فيها جهالات المتعريين وحماقات غلاة العلمانيّين،

(1) فرض الحجاب على المرأة المسلمة البالغة في ذي القعدة من السنة 5هـ بنزول قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ...﴾ الآية [النور: 31]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 59] فالحجاب ليس رمزا للتدنيّ كما يزعم الجهلة بشريعة الإسلام، وإلّا ما هو

ودعم الصليبيين الحاقدين، وتأييد بعض القوى المناوئة للإسلام في الداخل والخارج. ونجد لهذه الهجمة الشرسة جذورها البعيدة في تاريخ الصليبية والتغريب ببلاد الغرب الإسلامي، وقد سجّل تراثنا المغربي صفحات تكشف حقيقة هذه الفتنة وأهدافها ومن يغذيها ويقف وراءها.

لقد حرص الاستعمار الفرنسي وأعدائه على توظيف المرأة المسلمة في خدمة مخططاته في فرنسة البلاد، وتغريب الشعب، وفصله عن منابعه الإسلامية، فرأى أنّ كسب المرأة إلى صفّه بإغوائها وإبعادها عن حجابها وتزيين التّهتك لها، والانحلال والتبرّج والاختلاط بالرجال في كلّ المحافل، هو أقصر سبيل لكسب معركته مع الشعب التونسي لتدجينه وتغريبه، وحتىّ تمسيحه إن أمكنه ذلك، وكان يعوّل في معركته الخبيثة هذه على الأسر المترفة والمتجنّسة بالجنسيّة الفرنسيّة والدارسين بفرنسا والسابحين في فلكه، فيدعوهم مع زوجاتهم وبناتهم إلى الحفلات الرسميّة والسهرات والزيارات المشحونة بأجواء التبرّج والاختلاط، كما سنّت سلطة الاحتلال نظاما خاصّا بمدارس الفتيات ووضعت لها مناهج وبرامج هادفة للوصول بهنّ إلى ما يُسمّى بالحياة العصريّة بكلّ ما تمثّله من تسيّب وعُري وممارسات متهتكة باعتبارها مظهرا من مظاهر تحرّر المرأة من قيودها.

ودعّمت السلطة الاستعماريّة هذا التوجّه بتأليف الكتب والقصص والروايات التي تدعو للتبرّج والإباحيّة، إلى جانب التشجيع على عقد الندوات وإقامة المنابر الفكرية لنصرة تيار التغريب بكلّ ما يمثّله من مناوأة أصول الشعب وهويّته وقيمه.

من ذلك منبر حول الدعوة إلى السفور، ومحاربة الحجاب عقده الاشتراكيّون الفرنسيّون وأغلبهم من اليهود، وبعض أتباعهم من المتغربين التونسيّين وذلك في سنة 1924م، فغيرة هؤلاء اليهود ومن لفّ لفّهم، على المرأة المسلمة !!، وحرصهم على صلاحها وتطوّرها!! حملهم على التهجّم على الحجاب ودعوتها إلى التمرّد عليه وعلى قيمها وأخلاقيّاتها، والانضمام إلى الحياة العصريّة وأنوارها وكسر قيود التقاليد والأعراف الاجتماعيّة الإسلاميّة. ثمّ تلت ندوة ثانية بعد خمس سنوات أي في سنة 1929م نظّمها نفس الجماعة على غرار المنبر الأوّل دعت فيه إلى محاربة الحجاب باعتباره ظاهرة رجعيّة تمثّل عقليّة القرون الوسطى متناسين أنّه فريضة إلهيّة وأمر ربّاني لا يسع المسلم المؤمن إلّا تطبيقه، وزعموا أنّ الحجاب يمثّل حجر عثرة

فريضة وواجب يجب تطبيقه والعمل به.

في طريق تقدّم المرأة ، وغيرها من التهم السمجة الباردة التي نسمعها ونقرؤها اليوم حيث بعث فيها أخلاقهم من خصوم الإسلام الروح من جديد، وراحوا يردّدونها كما ردّدها أسلافهم من الاشتراكيين واليهود والاستعماريين، وكأنّ العفة والتصوّن اللذين يمثلهما الحجاب يحولان دون تعلّم المرأة وارتقائها أسمى الدرجات العلميّة..

وبعد هذه الندوة المشبوهة بسنة واحدة أي في سنة 1930 م وهي السنة التي أقيم فيها المؤتمر الإفخارستيّ، نشر للطاهر الحدّاد كتاب « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » وهو كتاب على جانب كبير من الأهميّة حيث وصّفَ بقدرة فائقة تردّي الأوضاع الاجتماعيّة المزريّة بتونس، كما وصف بدقّة متناهية معاناة المرأة داخل تلك الأوضاع المتدنّية، وكان من المفروض أن يسأل نفسه هل الإسلام هو الذي تسبّب في هذا التدهور أم البعد عن الإسلام وعدم تطبيق تعاليمه؟ ثمّ هذا البؤس والشقاء هل تكابده المرأة وحدها أم أنّ شقيقتها الرجل يعاني نفس ما تعانيه المرأة من جهل وتخلف وفقر؟! لو سأل هذا السؤال وحاول الإجابة عنه بأمانة وموضوعيّة لما شان كتابه بما شحّنه به من الطعون على بعض ثوابت الأُمّة. ورغم ما تضمّنه الكتاب من استطلاع آراء علماء الجامع الأعظم، عبر استبيان ضمّ اثني عشر سؤالاً هادفاً عن أوضاع المرأة وحكم الشريعة حولها.. إلّا أنّه لم يأخذ بشيء من آرائهم وفتاواهم وانساق نحو:

1 - الدعوة إلى التسوية في الإرث بين الذكر والأنثى، ورأى «أن لا شيء يجعلنا نعتقد خلود هذه الحالة»⁽¹⁾ - أي ما نصّت عليه آية الميراث في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْإُنْثَى﴾ [الآية 4 النساء: 11]، ويرى أنّ الإسلام لا يمانع في التسوية «متى انتهت أسباب تفوّق [الرجل] وتوفّرت الوسائل الموجبة [للمساواة]»⁽²⁾.

2 - أنكر تعدّد الزوجات، وقال في كتابه بالحرف الواحد: «ليس لي أن أقول بتعدّد الزوجات في الإسلام لأنني لم أر للإسلام أثراً فيه؟»، وزعم أنّ الإسلام حرّمه إلّا أنّ الصحابة والمسلمين من بعدهم لم يعملوا بهذا التحريم، واستمروا على خلافه، وأخذ يتمحّل في تفسير معنى العدل الوارد في آية النكاح: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [4 النساء: 3]، الذي أجمع العلماء على أنّ المراد به هنا العدل المادّي. وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [4

(1) امرأتنا في الشريعة والمجتمع: 41 [الطاهر الحدّاد - الدار التونسية للنشر 1980 تونس].

(2) نفس المصدر: 42 .

النساء: من الآية 129] الذين أجمعوا على أن المراد بالعدل المتعذر في هذه الآية إنما هو العدل القلبي العاطفي، وهو ما يفسره قوله ﷺ: «هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك». فكان الرسول ﷺ - وهو الذي أناط الله به تبين ما نزل للناس من الآيات: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [16 النحل 44] - وصحابته الأخيار وعلماء الأمة سلفهم وخلفهم لم يفهموا المراد بالعدل وفهمه الطاهر الحداد بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً!!.

3 - أنكر حجاب المرأة، وصبّ عبر خمس صفحات ونصف جام غضبه عليه، وألصق به كل دنية وخطيئة⁽¹⁾. واعتبره عادة قبيحة من عادات المدن وبعض القرى لأنها تغذي الشعور بالضعف عند المرأة وتوجهها إلى مفاصل الأخلاق!!، وشبه نقاب المرأة «بالكمّامة التي توضع على أفواه الكلاب كي لا تعصّ المارين».

4 - دعا إلى تأييد الزواج، فهو يقول بالحرف الواحد: «بل هو [أي الإسلام] في نصوصه يرمي إلى تأييد الزواج لو فهم المسلمون سنة التدرّج»⁽²⁾.

ورغم ما تظاهر به المؤلف من تعلق بالإسلام ورسوله وغيره على المسلمين إلا أنه انزلق في هوة سوء الأدب مع المقام النبوي الشريف بدعوى: «أنه إنسان كالإنسان غير سالم من عوارض البشرية، فيما لم ينزل عليه وحي من السماء..» وزعم أنه تبع عرب الجاهلية في كراهية أن تنكح نساؤهم وهم أموات فقال: «ولا يخفى ما في سير النبي على هذا النحو مثلهم من دواعي احترامه وتوقيره بينهم»⁽³⁾. متناسياً - رغم إirاده للآية: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُجَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [33 الأحزاب: من الآية 53] - أن ذلك تشريع إلهي لا دخل فيه للرسول صلى الله عليه وسلم ولا لعادات الجاهليين وأعرافهم التي جاء الإسلام ليهدمها!!

وكتاب الحداد رغم ما فيه من تصوير جيد لأدواء اجتماعية عديدة تنخر المجتمع وترهق الأسرة إلا أنه مدخول بتوجه يناوئ الإسلام وأحكامه وشاراته ومقدساته، بما ضمّنه من أفكار مصادمة للثوابت الإسلامية وللنصوص الشرعية القطعية..

(1) المصدر السابق: 183 - 188.

(2) المصدر السابق: 81.

(3) امرأتنا في الشريعة والمجتمع: 67 - 68.

وبعد،، فالذي نستخلصه من هذه النماذج من الأحداث التي حفظها لنا التراث هو أنّ الأمة لا تُؤتَى من عدوّها الخارجي فقط، وإنّما كثيرًا ما تُنتَهَك حصونُها من الداخل بفعل ضعف الإيمان وضمور الوازع الديني وانعدام الوطنية عند بعض أبنائها الذين تتلبّسهم الأطماع والأهواء والشهوات فيخونون أو طانهم ويوالون الدخيل بعلمانيّته واشتراكيّته ويستلهمون منه مناهجه وأساليبه في الحياة ويقلّدونه في كلّ ما يأتي وما يدع، وينحازون إلى الغازي والمتربّص، ضدّ أمّتهم وأبناء ملّتهم، يخدمون أغراضه ويمهّدون له السبيل لتحقيق أهدافه القبيحة في الهيمنة على مقدّرات البلاد وإذلال أهلها ونهب ثرواتها والدوس على مقدّساتها.

وحقيقة أخرى لا مرأى فيها نستخلصها من واقع تاريخ الأمة الذي حفظه لنا التراث وهي أنّ أيّ مشروع نهضويّ اقتصاديّا كان أو اجتماعيّا أو سياسيّا يقوم على فلسفة التغريب والإلحاد سيَبُوء بالفشل لأنّه سيَصَادُمُ عقيدة الجماهير ويطعن إيمانهم في الصميم فيعارضونه ويقاطعونه فيسقطونه.

كما نستخلص صدق الأثر القائل: « يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ».

فالسّطة متى كانت مؤمّنة، وطنيّة مخلصّة حقّقت لأمتّها ومجتمعها ووطنها الأعاجيب من ألوان التنمية والرفعة والمنعة، ومتى كانت غير ذلك ذلّت للأجنبيّ وظهرت العدو وتواطأت معه وألحقت بأوطانها ومواطنيها الكوارث، ومن هنا تحتم على الأمة أن تختار لمنصب القيادة الأصلح والأكفأ، وأن تضع آليات ديمقراطيّة تضمن التداول السلمي على السّطة.

إنّ الإسلام دين التجديد ودفع البدع وإزالة الشبه ومحاربة الخرافة وإيجاد الحلول الملائمة للعصر.. وإنّ دينًا بهذه القيم والتعاليم لا يمكن أن يضادّ التّطور ويصدّ عن التّقدّم ويقرّ الظلم والاستبداد، ويرفض الانفتاح على العصر بعلمه وتقنياته المتطوّرة، فالذي يرفضه الإسلام هو العسف والذلّ والمهانة والذوبان في الغازي وتبني أطروحاته المجافية لمصلحة الأمة واستقلالها ومنعتها والعاملة في السرّ والعلن لتدجينها وطمس هويّتها.

فاستبطان تراث مضمّخ بروح الإسلام وقراءته قراءة صحيحة واعية لجدير بأن يمدّ أصحابه بأمداد لا تنضب من الدروس والعبر التي تُسهم في تحصين المجتمع سياسيّا واقتصاديّا وعسكريّا... وتُعيّنه على إيجاد حلول فاعلة لمشكلاته العويصة، كما تساعد على تجاوز المحن والمصاعب التي قد تعمل على تعويق حركته لصدّه عن التّقدّم والإفلاق إلى عالم الديمقراطية والحرية والمنعة الفاعلة.



خطورة التكفير

بقلم فضيلة شيخ الازهر الدكتور أحمد الطيب

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

لا ريب أن من أخطر قضايا أمتنا العربية والإسلامية في عصرنا الحاضر .. قضية فوضى تكفير المسلمين، وفوضى الفتوى بحل قتلهم وقتالهم. وهي محنة كبرى تعاني منها بعض مجتمعاتنا عناء شديدا، وكنا نظن أن هؤلاء المكفرين قد استعادوا وعيهم وفهم دينهم فهما صحيحا، وتخلصوا من هذه الآفة ومن توابعها المدمرة منذ تسعينيات القرن الماضي في مصر وغيرها من البلدان والأقطار، غير أننا فوجئنا بهذه الآفة تطل أخيرا على بلادنا بوجهها القبيح، وتقص مضاجع شعوب عربية وإسلامية بأكملها في آسيا وإفريقيا على السواء؛ تقتل وتدمر وتفجر وتغتال الآمنين الغافلين البرءاء، وتحول حياة الناس إلى جحيم لا يطاق.

ومن المؤلم غاية الألم أن ترتكب هذه الجرائم باسم الإسلام وباسم شريعته السمحاء، وتنفذ عملياتها المدمرة مع صيحات التهليل والتكبير ودعوى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، الأمر الذي استغله الإعلام الغربي أسوأ استغلال في تشويه صورة الإسلام، وتقديمه للعالم بحسبانه دينا همجيا متعطشا لسفك الدماء وقتل الأبرياء، ويبعث على العنف والكراهية والأحقاد بين صفوف أبنائه وأتباعه.

وظاهرة تكفير المخالفين هذه - وما يترتب عليها من استباحة الدماء - ليست بالجديدة على المجتمعات الإسلامية، وفقهها ليس فقها جديدا على المسلمين، فكلنا درسنا تاريخ فرقة الخوارج، وظهورها المبكر في صدر الدولة الإسلامية، وكيف أنها

انحرفت إلى هذه الكارثة نتيجة انحراف سابق في تصورهما العقدي والفقهى، وأعني هنا فهمهما الخاطئ للعلاقة بين مفهوم الإيمان بالله تعالى كأصل، والأعمال كفر، وكيف ضلت حين تشبث ببعض الظواهر وأدارت ظهرها لظواهر أخرى تعارضها وتدعو إلى النقيض مما فهموه وتشبثوا به من بعض النصوص القرآنية.

ونحن لا نستطيع بطبيعة الحال أن نعرض في كلمة كهذه تفاصيل هذا الموضوع نشأة وأسبابا، وتطورا وعقيدة، وفقها ومضمونا، ولكن قد يكون من المناسب الحديث في إيجاز عن عودة قضية « التكفير »، والبحث عن السبب الأعمق الذي مكّن من عودتها واستئنافها لنشاطها المدمر.

وإنا لنعلم من تاريخ قضية « التكفير » أن مجتمعاتنا في مصر وفي العالم العربي والإسلامي لم تكن تعرف ظهور جماعة تؤمن باستحلال تكفير المجتمع وجاهليته، وتقول بوجود المفاصلة الشعورية مع أفراد - قبل عام 67 من القرن الماضي - كما نعلم، وأن جماعة التكفير الحديثة ولدت في السجون والمعتقلات بسبب من سياسة العنف والتنكيل التي عومل بها الشباب المنتمي إلى الحركات الإسلامية، وأنه حين طلب منهم - في ذلك الوقت - إعلان تأييد الحاكم سارع معظمهم إلى كتابة ورقة تأييد، بينما رفضت قلة منهم هذا العرض، وعدوا موقف زملائهم هذا تخاذلا في الدين، وتمسكوا برفضهم هذا الإعلان، وثبتوا في موقفهم، وما لبثوا أن انعزلوا في صلاتهم عن إخوانهم، وأعلنوا كفرهم لأنهم أيدوا حاكما كافرا، كما أعلنوا أن المجتمع بكل أفراد كافر بسبب موالاته لحاكم كافر، ولا فائدة من صلاة أفراد هذا المجتمع ولا صيامهم، ونادوا بأن الخروج من الكفر إنما يكون بالانضمام إلى جماعتهم ومبايعة إمامهم⁽¹⁾.

هذه الحادثة ربما تمثل أول ظهور لجماعة التكفير في سنة 1967 م بعد اندثار فرقة الخوارج والفرق الباطنية الأخرى التي أصبحت في ذمة التاريخ، وهكذا عادت ظاهرة التكفير الجديدة على أيدي شباب لم يكن يملك من المؤهلات العلمية والثقافية لمعرفة الإسلام إلا الحماس وردود الأفعال الطائشة الحادة، وانتقام العاجز المستضعف من الجلال المستبد، فكان التكفير هو الصيغة المثلى والأسرع للتعبير عن واقعهم المرير.

(1) ينظر: سالم علي البهنساوي: الحكم وقضية التكفير، دار الأنصار، القاهرة 1977 م / 1397 هـ، ص 24-25.

ومن هنا لم تكن أحكامهم أو تصوراتهم نابعة من فقه سديد أو فكر رشيد، وإنما جاءت انعكاسا لواقع حافل بالقهر والضغط؛ مما جعل بعض المدافعين عن هذه الحركة يصور التكفير في برنامجهم الحركي على أنه في الحقيقة « فكر أزمة » وليس منهجا في الحركة الإسلامية رغم جنوح البعض إليه⁽¹⁾.

هذا، ويذهب آخرون إلى أن نشأة التكفير في العصر الحديث لم تكن على أيدي هؤلاء الشباب الذين أعلنوا تكفير الحاكم والمجتمع في سجونهم في أواسط الستينيات من القرن الماضي، وإنما نشأ التكفير عام 1968 م في السجون أيضا على أيدي جماعة أخرى سمت نفسها جماعة المسلمين، ثم عرفت فيما بعد باسم : « جماعة التكفير والهجرة »، وتأثرت بها جماعات إسلامية أخرى بعد ذلك.

وأيا كان سبب نشأة التكفيرين فإن الذي لا شك فيه هو أن السجون وما دار فيها من انتهاكات في ذلك الوقت قد دفعت هؤلاء الشباب دفعا إلى اعتقادات فاسدة وتصورات شاذة، والذي يراجع المؤلفات التي كتبت في رهق مصادرة الحريات قديما وحديثا، يعثر فيها على كثير من الآراء والأفكار التي لو قدر لها أن تكتب في جو الحرية لتغيرت شكلا ومضمونا.

غير أن السجون ليست هي السبب الأوحى في عودة التكفير في عصرنا هذا، فثمة إلى جوارها - فيما أحسب - سبب آخر أعمق في التشجيع على التكفير والإغراء به واستسهال الخطب في شأنه، وهو هذا التراث الطويل المتراكم الذي يمكن أن نطلق عليه تراث الغلو والتشدد في الفكر الإسلامي، هذا التراث الذي يعبر - منذ نشأته - عن انحراف واضح عن عقائد الأمة وجماهيرها؛ وهو في كل الأحوال تراث ينتسب بصورة أو بأخرى إلى تراث الخوارج الذين حذر منهم النبي ﷺ⁽²⁾، ورفضتهم جماهير الأمة الإسلامية قديما وحديثا.

ومن اعتقادي أن محور الخلاف بين القيادة التكفيرية وعقيدة سائر أئمة المسلمين يكمن فيما يسمى في مبحث الإيمان والإسلام عند علماء العقيدة بعلاقة العمل بجوهر الإيمان وحقيقته.

(1) سيد قطب والتكفير: أزمة أفكار أم مشكلة قراء، إعداد وتحرير د. معتز الخطيب، مدبولي، القاهرة: 2009 م، ص 44.

(2) من ذلك قوله ﷺ فيهم في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : « ... يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية ، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان ... » (صحيح البخاري : 3344، وصحيح مسلم : 1064).

واسمحو لي - أيها القراء الكرام - أن أكرّر عليكم كلاماً إن يكن ليس بالجديد عليكم، فإنه كثيراً ما يغيب عن طائفة من الدارسين والراصدين والمحللين لهذه القضية، ثم هو ما يقتضيه المقام الآن: من المعلوم - أيها الإخوة - أن مذهب أهل السنة والجماعة في حقيقة الإيمان هو التصديق القلبي بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، إلى آخر ما ورد من الأحاديث الصحيحة التي تفسر مفهوم الإيمان بالاعتقاد القلبي الجازم، وقد عرفه النبي ﷺ فيما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة بقوله: «أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث⁽¹⁾»، أما الأعمال من صلاة وصيام وحج وزكاة، ومن فعل الواجبات وترك المحرمات؛ فإنها بمقتضى التعريف النبوي لا تدخل في حقيقة الإيمان، أي: ليست جزءاً مقوماً لماهيته بل هي شرط كمال؛ ولها شأن خطير في زيادة الإيمان ونقصه، فهي تصعد بالإيمان إلى أعلى درجاته، كما تهبط به أيضاً إلى أدنى درجاته، ومقتضى ذلك أن زوال الأعمال لا يزيل الإيمان من أصله، بل يبقى المؤمن مؤمناً حتى وإن قصر في الطاعات، أو اقترف المعاصي والسيئات، ولا يصح أن يطلق عليه لفظ الكفر بحال من الأحوال ما دام محتفظاً بالاعتقاد القلبي الذي هو حقيقة الإيمان ومعناه.

هذه النقطة تحديداً هي فيصل ما بين عقيدة أهل السنة والجماعة من الأشاعرة والماتريدية وأهل الحديث، وبين غيرهم ممن يجعلون الأعمال داخلة في حقيقة الإيمان، ويقررون أن من ارتكب كبيرة فقد زال إيمانه، وأصبح كافراً خارجاً عن الملة؛ وهنا يفتح الباب على مصراعيه لسفك الدماء وسلب الأموال.

وهذه النقطة أيضاً هي فيصل التفرقة بين عقيدة الجمهور، وبين فرقة المعتزلة الذين يقولون بأن مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً وليس كافراً، وإنما هو في منزلة بين المنزلتين، ويسمونه الفاسق، في كلام طويل رفضه علماء أهل السنة.

والذي يهمني بيانه الآن هو أن بعضاً من أصحاب المذاهب الآن تكون لديه تراث يتشدد في مفهوم الإيمان، ويستमित من خلال التدريس والكتابات والمؤلفات والقنوات الفضائية في أن يغرس في عقول الشباب أن المذهب الصحيح هو المذهب الذي يجعل الإيمان مزيجاً من الاعتقاد والعمل، وأن الاعتقاد أو التصديق القلبي وحده لا يكفي في تحقق معنى الإيمان.

(1) صحيح البخاري (كتاب الإيمان) باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان ... / 50).

وليت أصحاب هذه المذاهب المتشددة توقفوا عند طرح مذهبهم بحسبانه رأيا من الآراء، أو مذهبا من المذاهب؛ إذن لهان الخطب وسهل الأمر، ولكنهم راحوا يروجون مذهبهم هذا على أنه الحق الذي لا حق سواه، وأن المذهب الأشعري مذهب ضال ومنحرف ولا يعبر عن حقيقة الإسلام في هذا الموضوع، يقولون هذا برغم أن أكثر من 90 ٪ من جماهير المسلمين شرقا وغربا أشاعرة يؤمنون بأن الإيمان هو التصديق القلبي، وأن الأعمال تزيد وتنقص من الإيمان، ولكنها لا تزيله ولا تنقصه من أصله.

ونحن إذ ندعو الآن، وفي مقالي هذا، إلى عودة الوعي بمذهب الأشاعرة والماتريدية وأهل الحديث في هذه القضية، فإننا ندعو إلى مذهب درجت عليه جماهير الأمة الإسلامية على امتداد تاريخها الطويل، وهو المذهب الذي يضيق دائرة التكفير، بحيث لا يقع فيها إلا من يجترئ على الكفر الحقيقي؛ وذلك بجحد ركن من أركان الإيمان أو جحد ما علم من الدين بالضرورة.

هذا المذهب الذي تقرر قاعدته الذهبية: أنه لا يخرجك من الإيمان إلا جحد ما أدخلك فيه - مذهب تعضده آيات القرآن الكريم، وتشهد له بانفكاك حقيقة الإيمان عن حقيقة العمل، فقد عطف القرآن الكريم العمل على الإيمان عطف مغايرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في مواضع عدة.

كما أثبت في آيات كثيرة بقاء الإيمان في قلب المسلم مع اقترافه المعاصي والذنوب: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: 9]، ومعلوم أن القتل من أكبر الكبائر، ومع ذلك سمى الله القاتلين من الجانبين المؤمنين. وأيضا: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنفال: 6-5].

فقد وصف الله أصحاب النبي ﷺ بصفات هي من الكبائر، وهي كراهية الجهاد معه ﷺ ومجادلتهم إياه، رغم تبين الحق في أذهانهم، ومع ذلك سماهم القرآن «فريقا من المؤمنين».

ومن هذه الشواهد القرآنية قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: 106]، ومنها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 2-3]، ومنها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا

قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴿38﴾ [التوبة : 38]، إلى شواهد أخرى كثيرة تخاطب مرتكبي المعاصي والذنوب بـ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وتصفهم بالإيمان؛ مما يقطع بيقين أن مرتكب الكبيرة مؤمن ولا يجوز تكفيره، اللهم إلا إذا ارتكب كبيرة الشرك وأنكر ما علم من الدين بالضرورة، فهذا هو الكافر لجحوده وإنكاره.

هذا المذهب الأشعري - وهو مذهب الجمهور - هو الذي يعبر عن رجاء الناس ورجاء العصاة والمؤمنين في عفو الله ومغفرته ورحمته، وهو الذي يعكس يسر هذا الدين وحنؤه على أتباعه ورأفته بهم.

على أن الذي يقرأ مقدمة كتاب إمامنا أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه المعنون بـ: « مقالات الإسلاميين »، يعجب للسماحة الإسلامية المدهشة التي تتبدى بين جنبات هذا الإمام الجليل، وذلك حين يجمع المقالات والمذاهب والاختلافات التي حدثت بين المسلمين، ويحشدتها تحت خيمة الإسلام ويسمّيها: « مقالات الإسلاميين واختلافات المصلين ».

استمع إليه في مقدمته وهو يقول: « اختلف الناس بعد نبيهم ﷺ في أشياء كثيرة، ضلل فيها بعضهم بعضاً، وبرئ بعضهم من بعض، فصاروا فرقا متباينين، وأحزابا مشتبين، إلا أن الإسلام يجمعهم ويشتمل عليهم ⁽¹⁾. وهذا نص جدير بأن يضعه كل عالم نصب عينيه وهو ينظر إلى ما أصاب المسلمين اليوم من فرقة واختلاف.

هذا المذهب أسهم بقوة في حقن دماء المسلمين وصيانة أموالهم وأعراضهم، التي حرمها النبي ﷺ في قواطع صريحة بقوله: « كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه ⁽²⁾ » وقوله للناس في حجة الوداع: « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ⁽³⁾ »، وهو نفسه المذهب ذو النظرة المتوازنة للإنسان الخطاء بطبعه، كما نبه إليه النبي ﷺ في قوله: « كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون ⁽⁴⁾ ».

(1) الإمام الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص 1-2.

(2) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (2564) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) حديث متفق عليه أخرجه البخاري (67) ومسلم (1679) في عدة مواضع من صحيحيهما من حديث أبي بكره منه وغيره.

(4) أخرجه الترمذي في جامعه (2499) وابن ماجه في سننه (4251) من حديث أنس بن مالك وقال الترمذي: « حديث غريب »

وتعلمون أيها العلماء الأفاضل من النظر في مذهب الأشاعرة أن قضية التكفير لا يملكها أحد، ولا هيئة ولا جماعة ولا تنظيم، وإنما هي تسمية شرعية بحثة، ولها من الضوابط وتوافر الشروط وانتفاء الموانع ما يحصلها في أضيق الدوائر والحدود التي تدرأ بالشبهات، ثم هي منوطة بالقضاء وبأولي الأمر، ولا يسارع إليها إلا الجهلة من الناس كما يقول حجة الإسلام الإمام الغزالي، الذي يقرر: «أن الخطأ في ترك كفر ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم»⁽¹⁾.

كما يذهب الإمام محمد عبده إلى أن البعد عن التكفير أصل من أصول الأحكام في الإسلام، ويقرر أنه: «إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر»⁽²⁾.

إنني هنا -علم الله - لا أرمي إلى إذكاء خلاف بين العلماء، ومعاذ الله أن يكون الأزهر مؤسسة فرقة بين المسلمين؛ فقد عاش أكثر من ألف عام - وسيظل - يدرس المذاهب الفقهية على اختلافها، والمسائل الكلامية على افتراقها، والعلوم الإسلامية بمختلف أذواقها ومشاربها، لكن الأزهر قد وجد ضالته منذ القدم - في مذهب أهل السنة والجماعة واتخذ طوق نجاة للمسلمين؛ كلما عضت نوايب التشردم وآفات التعصب المقيت لمذهب يراه أصحابه هو الإسلام الذي لا إسلام غيره .. وسبيل الأزهر اليوم هو سبيله بالأمس: السعي الحثيث لجمع كلمة المسلمين ووقوفهم صفا واحدا في مهب العواصف والتيارات.

إن الأزهر الشريف الذي يرفع راية جمع الكلمة بين المسلمين، والذي لا يفرق بين مذهب ومذهب في مقاومة موجات الإلحاد والتغريب والإفساد الأخلاقي - لا يدخر جهدا في مقاومة الانحراف التكفيري الطارئ، والمرفوض من جماهير الأمة الإسلامية قديما وحديثا.

وليس أماننا -أيها القراء- من أجل تحقيق هذا الهدف، إلا مواصلة السعي بصدق لجمع علماء المسلمين على كلمة واحدة؛ لمواجهة الأخطار التي تهدد الجميع، ولتحقيق مصالح الأمة ودرء المفاسد عنها. وبدون هذا الالتقاء فإن النتائج لن تكون

(1) الاقتصاد في الاعتقاد (ص 135) ط دار الكتب العلمية 1424 هـ - 2004 م .

(2) الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده تحقيق د . محمد عمارة، دار الشروق 1414 هـ - 1993 م، (3/ 302)

على النحو الذي نرجوه لأمتنا وتقتضيه مصلحتها في هذه الظروف التي يمر بها العالم الآن.

إنني منذ اليوم الأول الذي تحملت فيه المسؤولية في الأزهر الشريف أعلنت أن وحدة الأمة من مقاصد الشريعة الكلية، وأن اجتماع كلمة علمائها في القضايا الحاسمة وفي مقدمتها قضية التكفير هو السبيل الأوحى للحفاظ على أمننا الداخلي، ووجودنا في العالم، بل الحفاظ على السلام العالمي كله، وإنه لمما يثير التساؤل أن مبادرتي الملحة والمتكررة من أجل وحدة الأمة، والتفاهم بين مذاهبها والتفاعل مع علمائها، لم تجد بعد آذانا صاغية بالقدر الذي يبعث الأمل في قدرة هذه الأمة على مواجهة تحدياتها. هذا الأمل الذي أسأل الله العلي القدير أن يحققه على أيديكم بإخلاص عملكم وصدق نواياكم الطيبة.

إن أمتنا - وكما يقرر ديننا الحنيف هي خير الأمم، وإن مكانها اللائق بها هو مقدمة الصفوف، وإن الأزهر الشريف الذي يفتح أبوابه أمام الجميع مرحبا ومقدرا أحوال المكان وظرفية الزمان ومحترما اختلافات العلماء- ليجدد دعوته إلى الأمة حكما ومحكومين إلى تبني المنهج الوسطي، في الفهم والاعتقاد والعمل، والذي دعا إليه القرآن والسنة؛ حفاظا على حاضر الأمة ومستقبلها، وامثالا لقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143] صدق الله العظيم.

• قال الشيخ الحبيب المستاوي رحمه الله في الوقوف عند رأس العام الهجري تجديد للعهد :

«ان وقفة المسلمين في كل دورة فلكية امام مبداء تاريخهم الإسلامي لتعمق في قلوبهم معاني التوحيد والتوحد وتجعلهم يستنكفون من عبر التاريخ ما يجدد فيهم العزم على المضي قدما في هذا السبيل الواضح المعالم الذي لا ترى فيه عوجا ولا امثا).



جذور اللغة العربية في فرنسا

بقلم الأستاذ صالح العود⁽¹⁾

لا ريب أن اللغة العربية في فرنسا قديمة جدا قدم دخول الإسلام إليها منذ سنة (96هـ) الموافق: (714م) إلا أن بعض المصادر تذهب إلى غير ذلك، منها: كتاب الأستاذ محمد عطية الأبراشي: (الآداب السامية / ص. 178)، ومما جاء فيه: «في سنة 1315م ابتدأت العربية تُعلَّم في الجامعات الأوروبية لغرض التبشير»؛ بينما بعض المصادر الفرنسية تشير إلى أن اللبنة الأولى التي وُضعت لانطلاق اللغة العربية هي إنشاء مراكز أو كراسٍ لها في سنة (1580م) حينما أسس فرانسوا الأول معهدا لتعلم اللغة العربية في باريس (العاصمة)، لكنه جعله خاصا بالنبلاء من أبناء الملوك والأمراء، وبعد ذلك تكوّن الكوليج دو فرانس Collège de France في باريس لتُعتمد فيه تعلم اللغة العربية، ثم أعقبه تأسيس مدرسة اللغات الشرقية بباريس سنة (1795م)، الشهيرة باسم (INALCO).

أما العلامة الدكتور عبد الرحمان بدوي فيشير في كتابه: (موسوعة المستشرقين/ ص. 322) بقوله: «ناهيك بـ (سلفستر دي ساسي Silvestre De Sacy)، فهو الذي

(1) باحث وكاتب في شؤون الدين والتربية والتعليم (خمسا وأربعين عاما) مقيما في بلاد فرنسا. متقاعد الآن بعد أن عمل بصفة رسمية محررا ومذيعا للبرامج العلمية في الإذاعة العربية بباريس ثلاثين عاما.

من أصل تونسي مهاجر منذ عام (1969م).. متزوج وله أبناء. له مؤلفات بلغت المائة، ومقالات نشرت في الصحف والمجلات والمواقع.

(بعث) تدريس اللغة العربيّة في فرنسا، وصار أعلم الناس بالعربيّة في أوروبا كلها؛ وكذا تلميذه المعروف: جوزيف رينو (JOSEPH REINAU) الذي خلف أستاذه دي ساسي على كرسيّ اللغة العربيّة، إلى أن أصبح مديراً عاماً لتلك المدرسة الشهيرة في الآفاق، أعني بها مدرسة اللغات الشرقية في سنة (1864 م)؛ ولما تُوفي خلفه شارل شيفر (Charles Schefer) في سنة (1867 م) إذ كان يُتقن ثلاث لغاتٍ على التوالي: (العربيّة والفارسيّة والتركيّة)، وقد كان يعمل قبل هذا مترجماً في سفارة بلاده بمدينة استانبول.

لكنّ الحقّ أحقّ أن يقال وهو أنّ دخول اللغة العربيّة وتوطّنها في مُدُنٍ فرنسيّة عديدة عقب الفتح الإسلامي الأوّل أقدم من ذلك بكثير، بشهادة التاريخ ومؤرّخيه، وإليك البيان:

◀ قال المؤرخ الفرنسي العريق غوستاف لوبون Gustave Lebon في كتابه (حضارة العرب / ص. 316 La civilisation Arabe)، أثناء كتابته عن فتوحات العرب في فرنسا: « لم يلبث المسلمون بعد أن أفاقوا من تلك الضربة التي أصابهم بها شارل مارتل، أن أخذوا يستردّون مراكزهم السابقة وقد أقاموا بفرنسا قرنين بعد ذلك، وقد سلّم حاكم مرسيليا مقاطعة البروفانس إليهم في سنة (889 م)، ودامت إقامتهم بمقاطعة البروفانس حتى نهاية القرن العاشر من الميلاد، وأوغلوا في مقاطعة الغالة وسويسرا سنة (935 م)، وروى بعض المؤرّخين أنّهم بلغوا مدينة نيس».

ومن هنا نفهم أو نستنتج أن إقامة الفاتحين المسلمين وبقاءهم مدة طويلة في الأصقاع الفرنسيّة، كانوا يعيشون في ظل عقيدتهم السمحة، وقيمون شعائر دينهم بلسان عربي مبين؛ وقد أشار إلى نحو هذا العلامة محمد الخضر حسين التونسي (شيخ جامع الأزهر الأسبق) فقال: «كانت اللغة العربيّة تجرّ رداءها أينما رفعوا رايّتهم، وتنتشر في كل وادٍ وطِئته أقدامهم».

◀ وفي كتاب (التاريخ الإسلامي ج. 18 ص. 397 / للمؤرّخ محمود شاكر): «إن المسلمين احتفظوا بمقاطعة سبتمانية ما يقرب من تسعين سنة، نشروا فيها حضارتهم، وقد كانت هذه المنطقة في هذه المرحلة منارا للعلم، ومن أشهر مُدُن هذه المقاطعة: مدينة مونبلييه Montpellier.

﴿ وأورد صاحب كتاب (الإسلام في فرنسا بين الماضي والحاضر/ ص. 29) الطبعة الأولى 2007م، دار ابن حزم، بيروت... للأستاذ صالح العُود صاحب هذا المقال. : «نزل بعض البحّارة من الأندلسيّين سنة (277هـ) في سواحل منطقة البروفانس شرق مدينة مرسيليا حيث استقروا في أحد المواقع الجبلية الحصينة فأسسوا دولة دامت ما يقرب من قرن: شملت أراضيها جنوب شرقي فرنسا وشمالى إيطاليا وسويسرا، وقد عرفت هذه الدولة العربية الإسلامية باسم دولة (جبل القلال)، وعند الأوروبيين باسم: (فراكسنيوم)، ولم ينسحبوا منها إلا في سنة 365هـ بسبب الضغط الصليبي الذي أخذت وطأته تشتدّ عليهم. وبالتالي، فإن الإسلام ظل في بلاد فرنسا على مقربة من باريس مدة (ثلاثة قرون إلا بضع سنين)، فغطى جغرافية نصف البلاد، ثم انحسر عنها بعد مدّ وجزر، وكرّ وفرّ، ولله عاقبة الأمور.

كتب أهداها الأستاذ صالح العود مشكورا لقراء مجلة جوهر الاسلام

*خير المسالك في سيرة الامام مالك

*مجمل الكلام في صحابة خير الانام

*سيرة المصطفى

*سيرة الرسول

*التوعية الصحية

*كتاب الخضر حسين

*التوجيه الاسنى بنظم أسماء الله الحسنی

*الصلاة في الإسلام

*كتاب التجويد

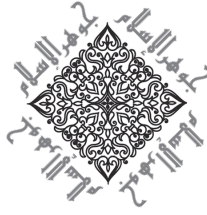
*الادعية النورية

*القران الكريم كتاب المصحف

*احكام الذبائح

*منظومة الشنا

*كتاب العلم



المصحف الشريف بتونس من المخطوط إلى المطبوع

بقلم الأستاذ محمد الصادق عبد اللطيف

كاتب - باحث

واكب المصحف الشريف انتشار الإسلام بإفريقية المسلمة، ذلك أن المصاحف الأولى الواردة مع الفاتحين والمستقرين بالقيروان أو التي كتبت بخطوط كانت آية في التألق والجمال والذوق هي التي ظلت متداولة بين أيدي الحفاظ والقراء يستنسخون عنها نسخا تكون إمتدادا وأصلا لكل حافظ

(1) المصاحف الأم كانت في الأكثر توافق رسم قراءة الإمام حمزة التي كانت تغلب على أقطار المغرب كله.

(2) ثم استقرت على قراءة نافع من رواية ورش - وأن المصاحف الأولى والتي تلاها كانت تكتب بالخط الكوفي الذي كان أساسا من الكتابة المغربية آنذاك.

(3) وأن الكتابة كانت بالحبر الأسود الحالك والباهت أو بمحلول قشور الرمان أو الجوز أو الزعفران أو صمغ الغنم، وكلها تحترم فواصل السور وتشير إلى الآيات والسجديات والسور والأحزاب وإلى أجزائها وخصائص أوضاع الخط هي إغفال تنقيط بعض الحروف والتزام تقطيع بعضها في اللفظة الواحدة بين آخر السطر وأول السطر التالي ولا تبالي بالتقطيع الذي يفصل بين حرف اللفظ الواحد ويوزعه بين سطرين.

اقتضت المنهجية أن تكتب المصاحف بكيفية تساعد على قراءة القرآن بالأحرف السبعة حيث جمع سيدنا عثمان جميع الناس على لغة (هي لغة قريش وغيرها من القبائل) وجعلوها خالية من النقط والشكل تحقيقاً لهذه الغاية.

ومن مظاهر العناية بالمصحف الشريف ما قامت به الأمة الإسلامية عبر القرون والأجيال من حفاوة وتعظيم لشأن المصحف وما التزمه المسلمون من آداب نحو كتاب الله - فتتافسوا في نسخه واقتناء المكتوب منه بأجود الخطوط وأبدعها وعملوا على تجويد وإتقان كتابته.

(4) وظلوا يكتبون المصاحف بالخط الكوفي حتى أواخر القرن الرابع هجري ثم حل محله خط النسخ الجميل أوائل القرن الرابع هجري ثم حل محله خط النسخ الجميل أوائل القرن الخامس الهجري وفيه النقط والحركات التي ما نزال نستخدمها إلى يومنا هذا.

(5) ومع انتشار الكتاب المخطوط تطور الخط المؤدي للمحتوى يراعى فيه الأداء الجيد الواضح والدقة والضبط، وقد تلقت إفريقية (تونس) المصحف وخدمته بالنسخ والتبليغ والتزام الخط الكوفي الياس.

(6) صاحب هذا التحسين والتجويد بواسطة الطباعة وقد ظهر القرآن مطبوعاً لأول مرة في البندقية سنة 1530 ميلادي لكن السلطات الكنسية أصدرت أمراً بإعدامه ثم قام (هنكلمان) بطبع القرآن في (همبورغ بألمانيا) سنة 1694 م 1106 هـ. ثم طبعه (مراكي) في (بادو) سنة 1698 م 1110 هـ.

هذه الطباعات الثلاث لم يكن لها أثر في (العالم الإسلامي) حتى ظهرت أول طباعة إسلامية خالصة للقرآن في (سانت بترسبورغ في روسيا) سنة 1787 م 1202 هـ. قام بها مولاي (عثمان) وظهر مثلها في (قازان).

وقدمت إيران طبعتين حجريتين في طهران 1284 هـ. 1828 م والأخرى (تبريز) يقوم (فلوجل) سنة 1250 هـ. بطبعته الخاصة للقرآن في (ليزرغ بألمانيا) فتلقاها الأوروبيون بحماس منقطع النظير بسبب إملائها الحديث السهل ولكنها لا تصيب نجاحاً في العالم الإسلامي.

وظهرت في الهند طباعات عدة للقرآن وتعني (الأستانة) ابتداء من سنة 1877 م بهذا الأمر، ثم ظهرت في القاهرة طبعة أنيقة ودقيقة لكتاب الله العزيز سنة 1342 هـ.

1923 م تحت إشراف مشيخة الأزهر وبإقرار اللجنة المعنية من قبل الملك فؤاد الأول كتب هذا المصحف وضبط على ما يوافق رواية (حفص) وقد تلقى العالم الإسلامي هذا المصحف بالقبول وأضحت ملايين النسخ التي تطبع منذ سنوات هي وحدها المتداولة أو تكاد لإجماع العلماء في المشرق والمغرب على الدقة الكاملة في رسمه وكتابته.

(7) وفي تونس استمر استعمال المصاحف المخطوطة التي تميزت بظهور الخط المغربي المتطور عن الكوفي والمتولد من الكوفي القيرواني متداولة في المساجد والزوايا والكتاتيب والمنازل تيسيرا للحفظ - حيث يتناولها القراء لمراجعة القرآن وقراءة الأحزاب والأختام بواسطتها كلما استدعى الأمر سواء أكانت ختمة كاملة أو في أجزاء، ثم في مرحلة أولى ورد المصحف المطبوع من المشرق العربي مع الحجيج العائدين وتعزز وعمّ تقريبا كل الكتاتيب بمصحف الجزائر المطبوع سنة 1937 (رودوسي قدور).

ولم يطبع المصحف في تونس إلا سنة 1365 هـ. 1945 م حيث تولى صاحب مكتبة ومطبعة المنار المرحوم التيجاني المحمدي خطه بيده وطبعه ونشره وتوزيعه وفق ما اتفق عليه الأئمة القراء حيث اعتنى بتطبيق رسمه وضبطه على الوجه المذكور فضيلة الشيخ عبد الجواد البنغازي مدرس القراءات بالجامع الأعظم، أما جزء عم فأشرف على تصحيحه الشيخ محمد الدلاعي المتخصص في علوم القراءات بالجامعة الزيتونية ومصحح المصاحف بالجمهورية التونسية ثم ظهرت طبعات متعددة بالرسم العثماني على رواية قالون (مصحف أصدرته المكتبة العتيقة بعد مراجعة المتخصصين في علم القراءات تحت إشراف مشيخة الجامع الأعظم بتونس رجب 1364 هـ. وبتصريح من إدارة البحوث والثقافة الإسلامية بالأزهر تحت رقم 201 بتاريخ 13/05/1972، وأخرجت الدار التونسية للنشر مصحفا في أجزاء برواية ورش سنة 1977 وعلى سبيل الذكر لا الحصر حظي مصحف (الحاج زهير) بعناية فائقة من طرف دور النشر لعدة أسباب (الخط، الجمال، التأنيق، الجودة).

(1) فقد طبعته الشركة التونسية للتوزيع وقد تطلب إخراجه وإنجازه من حيث الرسم والتزويق والطبع أربع سنوات وطبع سنة 1389 هـ. 1969 م برواية ورش. (2) طبعته أيضا الدار التونسية للنشر برواية قالون عن نافع سنة 1410 هـ. 1981 م وقد بذلت الدار بأقسامها المختلفة كل الجهود ليحظى من السادة القراء بجدير العناية.

- (3) طبعته نفس الدار برواية ورش 1399 هـ. 1978 م ثم 1980.
 - (4) طبع برواية حفص حسبما ورد في مقال الشيخ محمد المنوني (من المغرب) ضمن مقاله (لمحة عن تاريخ الخط في الغرب الإسلامي في المجلة التاريخية المغربية جويلية 1989).
 - (5) طبع برواية قالون جزء عم سنة 1987 (دار القلم تونس) بخط الخطاط (الميزوني المسلمي) قام بتصحيحه ومراجعته على أمهات كتب الرسم والضبط والآي والوقف والقراءات فضيلة الشيخ محمد الدلاعي.
 - (6) طبعت الدار التونسية للنشر سنة 1978 جزء تبارك على رواية الإمام قالون مع تفسير مدرسي لفضيلة الشيخ المرحوم محمد الشاذلي النيفر عميد الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين سابقا بمعية الأستاذ الصادق بلحاج.
- ودون شك فإن النماذج التي قدمتها ليست هي كل ما طبع في تونس ذلك أن دار عبد الكريم بن عبد الله أيضا أصدرت مصحفا كاملا برواية قالون سنة 1981 وهو متداول حاليا بخط المرحوم عبد العزيز الخماسي، ورغم وجود مؤسسة علمية مؤهلة للترخيص في طبع المصحف وترويجه لدى التلاميذ والقراء (جامعة الزيتونة أولا - قسم القرآن) ثم المجلس الإسلامي الأعلى وأيضا مفتي الجمهورية وأخيرا وزارة الشؤون الدينية فإن كل من طبع المصحف الشريف في تونس لا يعدو أن يكون تاجرا ناشرا لا غير وغير راجع للسلطة الدينية في البلاد إلا أخيرا وبعد التحول طبعاً، ان اللافت للنظر هو أن تونس حالياً لم يواكب تطورها الثقافي والديمقراطي تطور في كتابة المصحف وطبعه ونشره خاصة من طرف سلطة الإشراف (وزارة الثقافة، إدارة الشعائر الدينية سابقاً - وزارة الشؤون الدينية اليوم) وفي كل بلد إسلامي وحتى غربي يحرص العلماء والحكام والموسرون على خدمة القرآن بالطبع والتوزيع ويبدلون في ذلك جهوداً تناسب مقام كلام الله العزيز ويحافظ على تراثنا الإسلامي الأصيل ويعزز ما حافظ عليه الأسلاف في قراءة القرآن من المصاحف إلى الآن وتزيين البيوت بها، وخاصة إذا كان المصحف في طبعة أنيقة وجيدة وجديدة ولأن في طبعه ونشره وترويجه أكثر من معنى خاصة إذا كان باسم جهاز رسمي مثلاً الدولة ومختلف مؤسساتها، وأشير هنا إلى أن مصحف قطر المطبوع سنة 1986 بقراءة نافع عن ورش نشر للتعريف بالمصحف كما وصفه وأشرف عليه علماء الأزهر الشريف والذي يقرأ به عامة مسلمي المغرب والبلاد الإفريقية وقد اعتمد

فيه الخطاط الدكتور محمد الشريفي من جمال الخط ودقة الضبط واعتماد الرسم العثماني ما جعله تحفة خالدة تسر الناظرين وكان من علماء تونس من وقع على كمال هذا المصحف الدكتور الشيخ محمد الحبيب بلخوجة مفتي الجمهورية التونسية سابقا والشيخ مصطفى كمال التارزي مدير إدارة الشؤون الدينية في تونس، كذلك مجمع فهد لطبع المصحف الشريف عمر البيوت والمساجد بالطبعات الفاخرة للقرآن الكريم خدمة للقرآن ونشره وبجعله في متناول المسلمين، ما كان ليكون هذا إلا للإيمان بالقرآن وبمكاته وجعله قريبا من قلوب المسلمين حتى يعكس محتواه على سلوكهم وإيمانهم وعقيدتهم وعلاقاتهم. وكنا اقترحنا في مقال لنا صدر في جريدة الرأي العام الجمعة 3 سبتمبر 1993 أن تتولى رئاسة الجمهورية التونسية ووزارة الشؤون الدينية وجامعة الزيتونة اقتناء مصحف بخط تونسي يكتب خصيصا لهذه المناسبة تقوم بطبعه الدولة التونسية لإبراز دور تونس في خدمة المصحف الشريف ويقوم مقام السند العلمي لهذا البلد الإسلامي العريق ويكون رابطة متواصلة بين بقية المهتمين بالتراث الإسلامي مشرقا ومغربا وللدارسين للقرآن، لغة وحضارة وقانونا وتشريعا وتربية وبحثا علما وإعجازا.

وقد تحقق في تونس والحمد لله بمناسبة أعياد التحول المبارك لسنة 1999 حيث طلع علينا مصحف الجمهورية التونسية الذي أذن بطبعه وإنجازه وتوزيعه سيادة رئيس الجمهورية التونسية زين العابدين بن علي كعربون تعلق بهديه وتعاليمه وتشريعه.

جاء المصحف (مصحف الجمهورية التونسية نوفمبر 1999) ليبرز تعلق التونسيين بدينهم وبعقيدتهم وليعزز دور تونس في خدمة الإسلام والدفاع عن مبادئه السمحة كأمانة تحملتها تونس ويتحملها أبناؤها على مدى أربعة عشر قرنا بالتبليغ والحفظ والحفاظ عليه.

لقد تشرف وشرف الخطاطين التونسيين الخطاط (الميزوني المسلمي) حيث أبدع في رسمه وتنسيق كلماته وحروفه وآياته فجاء المصحف ككل (تحفة تسر الناظرين، زخرفة وشكلا وإخراجا) ولا يقل الاهتمام بالخط الإخراج، بالإشراف العلمي في التدقيق والمقارنة بما يقرأ به التونسيون برواية قالون.

إننا سعداء بتبني سيادة رئيس الجمهورية التونسية مشروع طبع المصحف فيثبت أنه مع عقبة بن نافع في خدمة المصحف الشريف وهو ما سوف يكتبه التاريخ له بكل فخر وعزة.

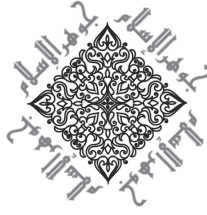
إن مصحف الجمهورية التونسية الحديث الطبع سمي بهذا الاسم لأنه جمع صفات ثلاثا (الخط تونسي أصيل مع زخرفة عريقة في طباعة تونسية حديثة) وقد أنجز بكفاءات تونسية بإرادة وطنية من أعلى مستوى أي رئاسة الجمهورية فهنيئا لتونس بهذا الإنجاز العظيم وطوبى للرئيس بن علي بهذا الأجر الموصول بالتقدير والإكبار الذي ينضاف لجهوده الخيرة في خدمة الإسلام وتركيز ثوابته بتونس اليوم.

اقتراح:

أقترح مرة أخرى على رئاسة الجمهورية وعلى وزارة الشؤون الدينية أن يتولى القائمون على رعاية القرآن الكريم وخاصة (قسم القرآن بمعهد أصول الدين في جامعة الزيتونة) إعداد مصحف ميسر للتلاميذ الصغار بأن نحافظ على النص القرآني كما هو ونجعل في طرة الصفحة إصلاحا لبعض الكلمات التي يصعب قراءتها عليهم بالرسم العثماني (مثلا : كلمة الصلوة تكتب في الهامش بالرسم القياسي الصلاة.) وإعداد مصاحف يعتمدها القائمون على صلاة التراويح في كامل مساجد وجوامع الجمهورية التونسية أمام قلة الحفاظ بأن :

- (1) نخط المصاحف بخط تونسي واضح.
- (2) بأن نجعل كل ثمن من حزب في صفحة واحدة (ثمن على يمين المصلي وثمان على يساره) بعد الركعتين والتسليم يقلب الصفحتين وهكذا يستمر استعمال هذا التجديد الإداري تيسيرا على من لم يتمكن من الحفاظ أو كان حافظا ونسي أو أن له حفظ مخلخل.
- (3) أن هذا الإنجاز سوف يقلل من التلقين وراء الإمام الذي كثيرا ما يدخل الاضطراب على القارئ وبالتالي يُيسر المشاركة في أداء صلاة التراويح حتى إن لم يحفظ القارئ القرآن.
- (4) بأن ترسل هذه المصاحف بهذا الشكل الجديد إلى المدن والقرى ويكون هدية الرئاسة لشعب تونس المسلم الحريص على أداء الواجبات الدينية والحفاظ عليها وليس هذا الأمر صعبا ولنا في بعض جوامعنا من يستعمل مصاحف مثل ما ذكرت (مخطوطة) وقد انتشرت هذه الطريقة في بعض المدن والقرى ووجدت القبول والاستحسان.

إنه اقتراح أضعه على بساط الدرس !



من كلام ابن عباد الرندي في دور الخطيب والخطابة في إصلاح المجتمع ويليه خطبة تاريخية من العهد المريني له في فضائل لا إله إلا الله

بقلم الدكتور كنيث عبد الهادي هنركامب

أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة جورجيا

أقدم للقارئ خطبة من خطب أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد الرندي ثم الفاسي (ت. 792 هـ / 1390 م)؛ وهي واحدة من الخطب التي ألهاها ابن عباد - قدس الله ثراه - حينما كان إماما وخطيبا بمسجد القرويين بمدينة فاس - حفظها الله من كل بأس - في العهد المريني بين 787 هـ / 1375 م و 792 هـ / 1390 م وتتضمن هذه الخطبة فضائل لا إله إلا الله. اعتمدت في تحقيقها على مجموع الخطب التي قيّد روايتها الفقيه العالم الشهير عبد العزيز بن الحسن الزيّاتي بالقصر الكبير بالمملكة المغربية عام 1041 هـ / 1630 م. وهي تحتوي على ستين خطبة في تسعين صفحة . وهذه المجموعة تدل على أن خطب ابن عباد صارت مرجعاً هاماً عند عامة خطباء الجوامع المغربية بعد وفاته لمدة طويلة؛ وحبذا لو كانت مرجعاً لخطباء الجوامع في العالم الإسلامي اليوم.

وأهمية خطب ابن عباد ترجع إلى شيئين: نظريته في دور الخطيب والخطابة في إصلاح المجتمع المسلم؛ ثم تطبيقه لهذه النظرية في ما لدينا اليوم من خطبه مما نقدم للقارئ اليوم نموذجاً منها.

أما عن رأيه في دور الخطيب في المجتمع⁽¹⁾ فيمكن أن نلاحظ أنّ معظم ما ألف ابن عباد في آخر مرحلة من حياته وإقامته في فاس كإمام وخطيب بجامع القرويين بأمر السلطان أبو العباس أحمد يرجع إلى ما كان يهتم به في جلّ مؤلفاته - ردّاً أو جواباً - على الوضع الديني والأخلاقي والاجتماعي الذي وجد نفسه فيه، مما حدا به إلى أن يلعب دوراً مهمّاً كخطيب وداعية مستحق لذلك المنصب بكل جدارة.

ولم يكن موضوع الخطابة والخطباء خارجاً عن المواضيع التي تناولها في مكاتباته ورسائله، خصوصاً في الرسائل الكبرى التي يقدم لنا فيها صورة قاتمة لأحوال المجتمع من جهة، وموقف خطباء زمانه منها من جهة أخرى، ثم يصف لزميله يحيى - وكان من صنف أهل العلم - كيفية معالجة أوضاعهم ولو بالنصح والإصلاح.⁽²⁾ أما عن أحوال الناس فيقول:

وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَقَدْ وَقَعَ فِي النَّاسِ الْفَسَادُ الَّذِي لَا يُرْجَى زَوَالُهُ إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْأَزْدِيَادِ - إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ تَعَالَى - لِأَنَّ الْإِيمَانَ التَّوْحِيدِيَّ لَمْ يَبْقَ فِي أَيْدِينَا مِنْهُ إِلَّا الْأَسْمُ، وَالَّذِينَ الْمُحَمَّدِيُّ لَمْ يَسْتَقِرَّ عِنْدَنَا مِنْهُ إِلَّا الرَّسْمُ؛ وَعُلُوُّ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ وَقُوَّتُهُمَا بِهِمَا تَتَلَقَّى الْبَلَايَا الْكِبَارُ الزَّائِدَةُ عَلَى الْمَقْدَارِ، وَيُسْتَحَلَّى بِسَبَبِهِمَا الرَّزَايَا الَّتِي تُمِرُّ الْعَيْشَ، وَيُعَوِّزُ فِيهَا الْأَصْطِبَارُ. فَإِلَى مَاذَا يَلْجَأُ النَّاسُ؟ وَبِمَاذَا يَتَمَسَّكُونَ؟ وَآيُّ أَرْضٍ تَأْوِيهِمْ؟ وَفِي أَيِّ طَرِيقٍ يَسْلُكُونَ، وَبِنَاءِ الدِّينِ فِي تَدَاعٍ، وَضَيْفُ الْإِيمَانِ قَدْ تَهَيَّأَ لِلرَّحِيلِ وَوَقَفَ لِلدُّوْدَاعِ؟⁽³⁾

ونستفيد مما سبق في بعض رسائله بأن ابن عباد يُعزّي الفساد الديني والأخلاقي لقلة مبالاة الفقهاء والعلماء بأمر عامة الناس كما أوضحه في موضع آخر في الرسائل الكبرى؛ وقد أوردت قوله هنا بطوله لما فيه من البيان والتوضيحات، فيقول: وَمِمَّا يَكَادُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُ الْقَلْبُ، وَيَتَفَطَّرُ لَهُ اللَّبُّ عَدَمُ تَعَرُّضِ الْخُطَبَاءِ وَالْوُعَاظِ لَتَنْبِيهِ النَّاسِ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ أَبَدَ الدَّهْرِ، فَتَرَى أَحَدَهُمْ فِي أَكْثَرِ الْبُلْدَانِ يَرْفَى عَلَى

(1) ما يلي من تحليل آراء ابن عباد في الخطيب ودور الخطابة في المجتمع ملخص من المقدمة التي وضعتها في تحقيقي لكتاب خطب الموسم لسيدى ابن عباد الرندي؛ أنظر: محمد بن إبراهيم بن عباد النفزي، خطب المواسم، الدراسة والتحقيق: كنيث عبد الهادي هنركامب، مراکش: المطبعة والوراقة الوطنية، 1437 / 2006.

(2) من حسن الحظ نجد في الرسائل الكبرى رسالة خاصّة بهذا الموضوع، ففي هذا الجز من كلامي في سيرته العلمية أذكر منها نبذة من كلامه .

خَمْسَةَ أَذْرَاجٍ، أَوْ سِتَّةَ، أَوْ سَبْعَةَ، مِنْ عِيدَانٍ، وَيَقِفُ عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ عُسْلُوجٌ⁽¹⁾ لَا يَنْفَعُ أَحَدًا بِنَافِعَةٍ، فَمَا كَانَ أُولَى ذَلِكَ الْمِنْبَرُ أَنْ يُرْمَى بِهِ مِنْ عَلَى ظَهْرِهِ قَبْلَ أَنْ يَهْطِطَ، أَوْ يَتَلَطَّأَ حِينَ يُرِيدُ خِدْمَةَ الْمَسْجِدِ إِخْرَاجَهُ، وَيَتَبَقَّطُ⁽²⁾ وَلَوْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ وَعْظُهُ بِهِ أَنْفَعُ مِنْ وَعْظِ هَذَا الْخَطِيبِ الْمَسْكِينِ، وَلَكِنْ جَرَتْ عَلَيْهِ صُورَةُ الْأَدَبِ مَعَهُ لِأَنَّهُ مُمْلَى لَهُ وَمُوَخَّرٌ إِلَى حِينٍ، ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [سورة الجاثية: 14]، أَيِ يَكْفِيهِمْ مَا هُمْ فِيهِ... وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَامِدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي بَعْضِ كَلَامِهِ مُشِيرًا إِلَى مَقْصِدٍ مِنْ مَقَاصِدِهِ: «وَلَقَدْ سَلَّمَتِ الْمَنَابِرُ الْيَوْمَ إِلَى قَوْمٍ قَلَّ مِنَ اللَّهِ حَيَاؤُهُمْ». وَلَا أَدْرِي مَا قَالَ بَعْدَ هَذَا؟ وَأَنَا أَقُولُ: «وَلَقَدْ سَلَّمَتِ الْمَنَابِرُ الْيَوْمَ لِلْحَمِيرِ، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْفِطْنَةِ لِمَصَالِحِ النَّاسِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، لَا قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ»⁽³⁾.

في أثناء كلامه عن الخطباء يذكر ابن عباد تطوّر الخطابة ومرورها عبر الزمان من أيدي القصاص والوعاظ، ثم العلماء والفقهاء - كل حسب فهمه لأعراض الأمة.

وَالَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ كُلَّ خَطِيبٍ فَهُوَ خَارِجٌ عَنِ الْمَضْمَارِ إِلَّا مَنْ أَسْتَشْنِيهِ، سِوَاءٍ خَطَبَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ بِخُطْبَةٍ وَاحِدَةٍ لَا يَزِيدُ عَلَيْهَا شَيْئًا، أَوْ زَادَ عَلَيْهَا وَلَكِنْ فِي بَعْضِ الْجُمُعِ دُونَ بَعْضٍ، أَوْ زَادَ عَلَيْهَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ وَلَكِنْ لَمْ يَرَاعَ فِي خُطْبَتِهِ حَالَ ذَلِكَ الْوَقْتِ، أَوْ رَاعَى حَالَ ذَلِكَ الْوَقْتِ وَلَكِنْ لَمْ يَحَسِّنْ صِيَاعَةَ ذَلِكَ كَمَا يَنْبَغِي، أَوْ اسْتَوْفَى ذَلِكَ كُلَّهُ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ تَعَالَى وَلَمْ يُرَاقِبْهُ فِي حَالِ قُبُولِ خَطَرَاتِ التَّصَنُّعِ وَالرِّيَاءِ. فَهُوَ لِأَخْمَسَةِ مِنَ الْخُطَبَاءِ خَارِجُونَ عَنِ الْمَضْمَارِ؛ وَغَنِي بِخُرُوجِهِمْ عَنِ الْمَضْمَارِ أَنَّهُمْ اشْتَرَكُوا فِي أَنَّهُمْ لَا حَظَّ لَهُمْ مِنْ ثَوَابٍ وَلَا أَجْرٍ، وَهُمْ مُتَّفَاوِتُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْوِزْرِ. فَالْأَوَّلُ مِنْ هَؤُلَاءِ أَعْظَمُهُمْ وَزَرًا لِأَنَّهُ تَوَعَّرَ فِي تِلْكَ الْأَعْوَادِ، وَلَمْ يَدْعُ أَحَدًا غَيْرَهُ يُسْمِعُ النَّاسَ فَائِدَةً تُسْتَفَادُ، وَالثَّانِي دُونَهُ، وَالثَّالِثُ دُونَ الثَّانِي، وَالرَّابِعُ دُونَ الثَّالِثِ، وَالْخَامِسُ دُونَ الرَّابِعِ⁽⁴⁾.

وأخيرا يصف الداخل في المضممار أنه هو الخطيب الناصح، العارف بالمفاسد، مرضي الحالة عند الناس، به يصلح الراعي والرعية، يقول:

(1) عسلوج: ما لان واخضر من القصبان؛ قلت: المراد هنا، يقف الخطيب بلا صلاية ولا حزم.

(2) يتبَقَّط: كذا في جميع النسخ؛ ولعل المعنى هنا: أسرع في الكلام وامتنع.

(3) محمد بن عباد، الرسائل الكبرى، ص 464.

(4) محمد بن عباد، الرسائل الكبرى، ص 470-471.

وَالَّذِي هُوَ دَاخِلٌ فِي الْمَضْمَارِ، الْخَطِيبُ النَّاصِحُ، الْعَارِفُ بِالْمَفَاسِدِ وَالْمَصَالِحِ، الَّذِي يَعْلَمُ وَجْهَ مَشْرُوعِيَّةِ الْخُطْبَةِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ، وَيَذْكُرُ لِلنَّاسِ فِيهَا مِنْ وُجُوهِ النَّصِيحَةِ مَا أَمَكَنَهُ وَوُسَعُهُ، وَيَحْرُصُ عَلَى أَنْ يُعَلِّمَهُمُ الْأَمْرَ الَّذِي يَحْتَاجُونَ فِي الْوَقْتِ إِلَى عِلْمِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ وَيُبَلِّغُهُمْ ذَلِكَ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِ وَأَقْرَبِهِ بِحَيْثُ يُرَاعِي ذَلِكَ فِي نِعَمَاتِهِ، وَفِي تَرْتِيبِ كَلِمَاتِهِ، وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْمَطْلَبِ الَّذِي هُوَ آخِذٌ فِيهِ؛ وَقَدْ يَخْفُضُ صَوْتَهُ فِي مَوْضِعٍ يَقْتَضِي الْحَالَ خَفْضَهُ، وَيَرْفَعُهُ فِي مَوْضِعٍ يَلِيْقُ بِهِ رَفْعُهُ، وَلَا يَسْتَمِرُّ ذَلِكَ عَلَى سَنَيْنٍ وَاحِدٍ، بَلْ يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ⁽¹⁾ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إِذَا خَطَبَ أَحْمَرَتْ عَيْنَاهُ وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ، يَقُولُ: «صَبِّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ ... الْحَدِيثُ»⁽²⁾. ثُمَّ يَقْصِدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى وَالْدَّارَ الْآخِرَةَ؛ فَهَذَا هُوَ الدَّخْلُ فِي الْمَضْمَارِ السَّالِمِ فِي تَعَاطِي ذَلِكَ مِنَ الْأَوْرَارِ الْكَائِنِ فِي عِدَادِ الْمُتَّقِينَ الْأَبْرَارِ، وَدُونَهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُخْلِصًا فِي ذَلِكَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ غَيْرَهُ هُنَاكَ يَقُومُ مَقَامَهُ فِي سُلُوكِ تِلْكَ الْمَسَالِكِ، وَهُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ شَقِيٌّ هَالِكٌ، وَمَنْ عَدَا هَذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ سَاقِطٌ عَنْ دَرَجَةِ الْأَعْتِبَارِ؛ لَيْسَ وَرَاءَ دَارِهِ دَارٌ⁽³⁾.

وفي نهاية معالجه لعلّة عدم انتفاع العامة من الفقهاء والمدرسين عدم اعتناء هؤلاء بشعور الناس وعواطفهم ويقول مبيناً لذلك بأنّ احتياجات الناس هي احتياجات قلوبهم كما يقول:

وَأَعْلَمُ: إِنَّ الْعَامَّةَ وَالْغَوَّاءَ لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى الْإِنْتِفَاعِ عَلَى أَيْدِي الْفُقَهَاءِ الْمُتَنَصِّبِينَ لِلْإِقْرَاءِ وَالتَّدْرِيسِ لِأَنَّ شَأْنَ هَؤُلَاءِ بَثُّ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَذِكْرُهَا لِمَنْ يَتَعَرَّضُ لَهُمْ أَوْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهَا؛ وَالْعَامَّةُ لَا قَرِيحَةَ لَهُمْ تَحْمِلُهُمْ عَلَى سُؤَالِهِمْ عَنْ ذَلِكَ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْجَهْلِ وَالْغَفْلَةِ⁽⁴⁾.

(1) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاريّ السلمي (698/78)، يكتي أبا عبد الله وأبا عبد الرحمن وأبا محمد - أقوال. أحد المكثرين، روى عنه جماعة من الصحابة، وله ولأبيه صحبة، الإصابة، ج 1، ص 434-436.

(2) رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة؛ عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: «كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا خطب أحمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتّى كأنه منذر جيش يقول: صباحكم ومساكم ويقول بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى».

(3) محمد بن عباد، الرسائل الكبرى، ص 471.

(4) محمد بن عباد، الرسائل الكبرى، ص 471.

ويتم كلامه بوصف دقيق للخطيب الذي يمثل الخطيب الناصح:
فَيَحْتَاجُونَ لَا مَحَالَةَ إِلَى مَنْ يُعَانِي قُلُوبَهُمْ؛ أَوَّلًا، بِالْمَوْعِظَةِ وَالتَّذْكِيرِ وَالتَّخْوِيفِ
وَالْتَحْذِيرِ، ثُمَّ يَتَدَرَّجُ - فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ - إِلَى ذِكْرِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالسُّنَنِ وَالْآدَابِ.
وَطَرِيقَتُهُمْ فِي هَذَا أَوْسَعُ مِنْ طَرِيقَةِ الْفُقَهَاءِ وَأَقْرَبُ مَأْخِذًا، وَبِهَذَا يَقَعُ لَهُمْ
الْإِنْتِفَاعُ.⁽¹⁾

وبعد كل هذه التوضيحات عن الخطابة عبر الزمان وشروط الخطيب الناصح ومن
دخل المضمار ومن خرج منه نقدم خطبة نموذجية يُعالِجُ فيها قُضِيَّةَ التَّوْحِيدِ وَعِلَاقَتَهُ
بِالْقِيَمِ الرُّوحِيَّةِ لَدَى الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ عَامَّةً؛ وَعِلَاقَةَ كَلِمَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِنْ مَفَاهِيمِ هَذِهِ
الْخُطْبَةِ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي تَأْسِيسِ مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - سِرًّا وَعِلَانِيَةً،
قَلْبًا وَلِسَانًا - كَعَلَامَةِ حَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ وَدَوْرَهَا الْفَعَالِ فِي تَحْقِيقِ فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ وَمَا
يَجْعَلُهُ مُتَخَلِّقًا وَحَسَنَ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ كَافَّةً فِي بِنَاءِ مُجْتَمَعٍ مُتَشَبِّعٍ بِالْفَضَائِلِ وَالْقِيَمِ
الْإِنْسَانِيَّةِ الْمُثَلَّى؛ أَوْ بِعِبَارَةِ عُلَمَاءِ الْأَنْثُرُوبُولُوجِيَا: كَيْفَ تُسْتَنْبِطُ الْمُبَادِئُ الْأَخْلَاقِيَّةُ
الْإِنْسَانِيَّةُ، وَكَيْفَ تُصْنَعُ الْقِيَمُ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ.

فَمِنْ خِلَالِ مَفَاهِيمِ هَذِهِ الْخُطْبَةِ فِي فَضَائِلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يُقَدِّمُ لَنَا ابْنُ عَبَّادٍ نَظْرِيَّةً
عِلْمِيَّةً، وَمِنْهَجًا وَاضِحًا، وَحَلًّا جَذْرِيًّا لِأَزْمَةِ الْأَخْلَاقِ، مَبْنِيًّا عَلَى الْأُسُسِ الْحَقِيقِيَّةِ
لِلتَّوْحِيدِ، كَرِسَالَةِ كُلِّ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ.

فلنعد الى ما ترك لنا شيخنا الْعَلَامَةُ ابْنُ عَبَّادٍ من النصائح والكلمات الطيبة

❖ خُطْبَةٌ فِي فَضَائِلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ❖

الْحَمْدُ لِلَّهِ جَاعِلِ التَّوْحِيدِ لِنِعْمَةِ التَّخْلِيدِ سَبَبًا ❖ الْمُنْعِمِ بِكَوْنِهِ عَلَى خِفَّتِهِ أَثْقَلَ
الْأَعْمَالِ وَرَزَأًا؛ وَأَعْظَمَ الْأَقْوَالِ قُرْبًا ❖ وَالْمُحْسِنِ بِهِ ابْتِدَاءً؛ وَالْمَرْجُو لَهُ انْتِهَاءً؛ مَنْ
غَيْرِ يَدٍ مُتَقَدِّمَةٍ؛ وَلَا هُوَ عَلَيْهِ وَجِبًا ❖ إِنْعَامًا مِنْهُ عَظِيمًا؛ وَفَضْلًا عَمِيمًا؛ وَمَنَّا لَيْسَ
مِنْ كَرَمِهِ عَجَبًا ❖ نَحْمَدُهُ وَنَشْكُرُهُ عَلَى نِعْمَى الَّذِي لَمْ يَزَلْ مُنْسَكِبًا وَعَلَيْنَا مُنْسَجِبًا
❖ وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى أَعْمَالٍ تَكُونُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَذَابِهِ حُجْبًا ❖ وَنَسْتَغْفِرُهُ لِدُنُوبٍ تَكَثَّرَتْ
مِنَّا عَدَدًا؛ وَسَادَتْ مُكْتَسَبًا؛ وَنَسْأَلُهُ تَوْبَةَ تُوَلِّينَا مَحَبَّةً؛ وَتُعَلِّينَا رُبًّا ❖ وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْمَوْلَى الَّذِي امْتَدَّتْ الْأَيْدِي إِلَيْهِ رَغْبًا ❖ وَانْقَبَضَتْ

(1) محمد بن عبَّاد، الرسائل الكبرى، ص 471-472.

عَنْ غَيْرِهِ رَهْبًا ﴿٥﴾ شَهَادَةً مَنْ عَلِمَ أَنَّهَا مَنجاتُهُ فَلَمْ يَزَلْ بِهَا مُعْتَصِمًا؛ وَعَلَى الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا حَدْبًا ﴿٦﴾ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَى الْوَرَى قَدْرًا؛ وَأَشْرَفُهُمْ فَخْرًا وَأَرْفَعُهُمْ نَسَبًا ﴿٧﴾ وَأَعْظَمُ الْمُرْسَلِينَ تَبَعًا وَأَكْثَرُهُمْ فِي هِدَايَةِ الْعَالَمِينَ نَصَبًا ﴿٨﴾ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ الْكَائِنِينَ لِلْمُقْتَدِينَ أَسْوَةً؛ وَلِلْمُهْتَدِينَ شُهَبًا ﴿٩﴾ صَلَاةٌ تَدْفَعُ مِنْ عِقَابِ الْعِقَابِ وَصَنًا؛ وَمَنْ جَاحِمِ الْجَحِيمِ لَهَبًا.

أَيُّهَا النَّاسُ - إِنَّ الدَّعَاوَى لَا يُصَحِّحُهَا إِلَّا الْبُرْهَانُ ﴿١٠﴾ وَإِنَّ الْإِحْسَانَ لَا يَكُونُ جَزَاؤُهُ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿١١﴾ وَإِنَّ الْقُرْبَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَنَالُ إِلَّا بِأَعْمَالِهِ ﴿١٢﴾ وَإِنْ رَضَاهُ لَا يُبْلَغُ إِلَّا بِمُرَاعَاةِ أَمْرِهِ وَامْتِثَالِهِ. ﴿١٣﴾ وَإِنْ مِنْ دَعَاوِينَا الْعَظِيمَةِ مَحَبَّةُ اللَّهِ؛ وَإِثَارُهُ عَلَى مَنْ سِوَاهُ؛ وَبُرْهَانُ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى دَوَامُ ذِكْرِهِ؛ وَبُرْهَانُ إِثَارِهِ؛ اجْتِنَابُ نَهْيِهِ، وَامْتِثَالُ أَمْرِهِ؛ وَبُرْهَانُ الْإِحْسَانِ الْمُجَازَى بِالْإِحْسَانِ؛ إِتْيَانُ مَا يُحِبُّ اللَّهُ وَيَرْضِيهِ؛ وَبُرْهَانُ الْامْتِثَالِ الْعَمَلُ بِمَا يُعْطِيهِ نَصُّ كِتَابِ اللَّهِ وَيَقْتَضِيهِ؛ وَلَا نَصَّ أَصَحُّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَالْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الَّذِي حَفَظَهُ وَحَمَاهُ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: 20]؛ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِ، وَهُدْيِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ مِنْ فِعْلِهِ: «أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»؛ وَقَالَ «أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»⁽¹⁾؛ وَإِنَّمَا ذَلِكَ - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - لَأَنَّهَا كَلِمَةٌ التَّوْحِيدِ، وَالْعُرْوَةُ الْوُثْقَى الَّتِي لَا تَفْنَى وَلَا تَبِيدُ؛ وَالْعَقِيدَةُ الَّتِي لَا يُسْعُ فِيهَا الْجَهْلُ، وَلَا يَصْحُ فِيهَا التَّقْلِيدُ؛ فَعَلَيْكُمْ بِتَكَرُّرِهَا فَإِنَّهَا أَعْلَى الْأَذْكَارِ، وَالْجَنَّةُ الْوَاقِعَةُ مِنَ النَّارِ، وَالنَّعْمَةُ الْهَادِمَةُ لِلْأَوْزَارِ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ لَقَدْ أَمَرْتُ لَوْلَا أَنِّي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ فَإِنَّهَا تَهْدِمُ الذُّنُوبَ هَدْمًا، قَالَ؛ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا لِلْأَمْوَاتِ دُونَ الْأَحْيَاءِ؟⁽²⁾ فَكَيْفَ هِيَ لِلْأَحْيَاءِ؟ قَالَ: هِيَ أَهْدَمُ أَهْدَمًا».

وَرَوَى عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ؛ وَمَدَّهَا بِالتَّعْظِيمِ، كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ أَرْبَعَةَ آلَافِ ذَنْبٍ مِنَ الْكَبَائِرِ»؛ قِيلَ لَهُ: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ هَذِهِ الذُّنُوبُ؟» قَالَ: «يُكَفِّرُ مِنْ ذُنُوبٍ وَالدِّيَةِ».

(1) رواه الترمذي (3585).

(2) في أصل المخطوط: «يا رسول الله هذا للأحياء دون الأموات؛ فكيف هي للأحياء؟» وما أثبتته من حديث الأحياء في فضيلة التهليل؛ وما عند أبي نعيم في معرفة الصحابة (21894 /) مرفوعا، وما رواه عبد الرزاق في المصنف (387 /3) موقوفا على عبد الله بن مسعود.

وَرَوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ «إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ، لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا الْقَائِلُ حَتَّى تَخْرُجَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ سَاجِدَةً، فَيَقُولَ اللَّهُ تَعَالَى: ازْفَعْ رَأْسَكَ، قَدْ عَفَرْتُ لِقَائِكَ».

وَرَوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ «لَيْسَ عَلَى أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْشَةٌ فِي قُبُورِهِمْ، وَلَا فِي يَوْمِ نُشُورِهِمْ»؛ [وَرَوِيَ عَنْهُ فِي حَدِيثٍ آخَرَ] «وَلَوْ جَاءَ قَائِلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ بِقُرَابٍ⁽¹⁾ الْأَرْضِ خَطَايَا؛ لَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ».

وَرَوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عِدَلُ عَشْرِ رِقَابٍ وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيتَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ [2] حَتَّى يُمْسِيَ».⁽²⁾

وَرَوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ «كُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا ابْنُ آدَمَ تُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا شَهَادَةَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّهَا لَا تُوَضَعُ فِي مِيزَانٍ، لِأَنَّهَا لَوْ وُضِعَتْ فِي مِيزَانٍ مِنْ قَالِهَا صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ، وَوُضِعَتْ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ؛ لَرَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».⁽³⁾

وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَخْلُصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا مَمْلُوءَةً بِالذُّنُوبِ؛ كُلُّ سِجِلٍّ مِنْهَا مِثْلُ مَدِّ الْبَصْرِ، فَيَقُولُ لَهُ⁽⁴⁾: عَبْدِي أَتَنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كِتَابِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ الْعَبْدُ: لَا يَا رَبِّ! فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ تُعْذِرْ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ! فَيَقُولُ لَهُ جَلَّ وَتَعَالَى: بَلَى إِنْ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةٌ؛ فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ؛ فَيُخْرِجُ لَهُ بِطَاقَةً فِيهَا «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»؛ وَيَقُولُ لَهُ: عَبْدِي، احْضُرْ وَزَنَّاكَ!

(1) في هامش الأصل توجد إشارة إلى أن هنا خلل وخطأ؛ ولكنه غير واضح بسبب تمزيق الورقة؛ ولكن في ما يأتي: «... فوته يصلحاً في الأصل ولعله خطأ ... عفا الله عنه ... من لفظ الحديث ... القاف ... وكسرهما معناه على» ومثل هذا قد أوردته الإمام الغزالي في الإحياء بلفظ «بقُرَاب» بدلا من «ترابا»؛ أنظر الإحياء 2/355. ويستند هذا ما رواه مسلم (9474) مرفوعا حديثا قدسيا «ومن لقيني بقُرَاب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئا ... لفيته بمثلها مغفرة»؛ وما عند الترمذي (3540) «يا بن آدم؛ إنك لو أتيتني بقُرَاب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا ... لأتيتك بقُرَابها مغفرة».

(2) رواه البخاري (3293)، ومسلم (2691).

(3) روى مثله الطبراني في الكبير (254/12) مرفوعا؛ والنسائي في السنن الكبرى (10602).

(4) خ: يقال هو الله.

فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَمَا تُثْقِلُ هَذِهِ الْبِطَاقَةَ الْوَاحِدَةَ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فَيَقُولُ لَهُ: إِنَّكَ لَا تُظَلِّمُ؛ فَتَوَضَّعُ السَّجَلَاتُ كُلُّهَا فِي كِفَّةٍ⁽¹⁾ وَالْبِطَاقَةُ وَحْدَهَا فِي كِفَّةٍ، فَتَطْيِشُ السَّجَلَاتُ، وَتُثْقِلُ الْبِطَاقَةُ؛ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَيْءٌ⁽²⁾.

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ «قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ بِشَفَاعَتِكَ؟» قَالَ «أَسْعَدَ النَّاسَ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصَةً مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ».

فَأَكْثَرُوا - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - مِنْ قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِنَّهَا الْكَلِمَةُ الْحَقُّ، وَالْعُرْوَةُ الْوُثْقَى، الْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةِ الَّتِي تَدُومُ لِقَائِلِهَا وَتَبْقَى؛ وَجَدَّدُوا لِتَجْدِيدِهَا فِي كُلِّ نَفْسٍ إِيْمَانَكُمْ؛ وَتَقَلُّوا بِهَا - وَإِنْ خَفَّتْ عَلَى أَلْسِنَتِكُمْ - مِيزَانَكُمْ؛ فَإِنَّهَا عَقِيدَةُ الْإِيْمَانِ، وَحَبِيبَةُ الرَّحْمَنِ، وَمُرْجَمَةُ لِلشَّيْطَانِ؛ وَوَسِيلَةُ الْفَوْزِ وَالرَّضْوَانِ.

جَعَلَنِي اللَّهُ - وَإِيَّاكُمْ - مِمَّنْ دُلَّ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَسَلِّكْهُ؛ وَعَرَفَ مَرَدَّ هَوَاهُ، فَقَهَّرَهُ وَمَلَّكْهُ. وَصَرَّفْنَا فِيمَا يَرْضَاهُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَتَفَضَّلَ عَلَيْنَا بِعَفْوِهِ، فَهُوَ أَكْرَمُ مَنْ تَفَضَّلَ.

وَإِنَّ السَّبِيلَ الْوَاضِحَ لِلنَّجَاةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَالْعَلَامَاتِ اللَّامَحَاتِ عَلَى الْخَيْرَاتِ السَّرْمَدِيَّةِ، قَوْلُ الْمُتَقَدِّسِ عَنِ الْإِيْنِيَّةِ وَالْكِفِيَّةِ. ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ؛ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: 86-88].

وختامًا - أسأل الله العليَّ القدير أن يرحم ابن عباد ويرزقه أعلى درجات القربة وينفع بهذه الخطب من تراثه القارئ والمحقق وجميع المحبين الصادقين لوجه الله تعالى. كما أرجو أن تقع هذه الخطب في يد خطيب للجمعة أو العيد فيدمجها في خطابه مع عباد الله، وبها ينفع المؤمنين والمؤمنات من كلام ابن عباد. جعلني الله وإياكم ممن دُلَّ على الصراط المستقيم فسلكه، وعرف مرَدَّ هَوَاهُ فَقَهَّرَهُ وَمَلَّكْهُ؛ وَصَرَّفْنَا فِيمَا يَرْضَاهُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَتَفَضَّلَ عَلَيْنَا بِعَفْوِهِ، فَهُوَ أَكْرَمُ مَنْ تَفَضَّلَ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

(1) خ: كذا نقل بعضهم...؟.

(2) رواه الترمذي في سننه (2639) وقال «حدثنا ابن لهيعة عن عامر يحيى بهذا الإسناد نحوه».



في رياض السنة

الحديث الحادي والعشرون من الأربعين النووية الاستقامة

بقلم الأستاذ محمد صلاح الدين المستاوي

عن أبي عمرو وقيل أبي عمرة سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال «قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: قل آمنت بالله ثم استقم» رواه مسلم. هذا الحديث وامثاله من الأحاديث المختصرة المحدودة في عدد كلماتها تختزل المعاني الثرية والابعاد العميقة وكثيراً ما تأتي هذه الأحاديث إجابة عن سؤال من أحد الصحابة رضي الله عنهم واستنصاحاً من أحدهم أو غير ذلك مثل هذا الحديث في الإيجاز والبلاغة والعمق والثراء والتعبير عن مقاصد الإسلام،

إنها أحاديث تمثل عناوين للإسلام وقواعد تعبر عن خصائصه وجوهره، ونذكر من هذه الأحاديث قوله عليه الصلاة والسلام «الدين النصيحة» و«لا دين لمن لا أمانة له» و«لا تغضب» و«أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة» و«كن باراً بالديك» و«اعني على نفسك بكثرة السجود» وغير ذلك كثير وكثير جداً في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أتاه الله جوامع الكلم فهو أفصح من نطق بالضاد.

وهذا الحديث الذي بين أيدينا عبر فيه أحد الصحابة عن حال كثيراً ما يعترينا ونتمنى أن نجد ما يشفي غليلنا فيها.

فأوامر الإسلام ونواهيه كثيرة والنفس البشرية ميالة إلى الأيسر وإلى ما هو في استطاعتها. فما يشق ويتطلب مجهوداً كبيراً لا يستطيعه إلا ذوو العزم أما عامة الناس فإنهم يحبون الأرفق والأسهل خصوصاً وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول كتب السيرة أنه ما خيره ربه بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن حراماً فإذا كان حراماً كان أبعد

الناس عنه. وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتيسير والتبشير «يسرا ولا تعسرا» وقال «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق...».

وهذا الصحابي «أبو عمرو سفيان ابن عبيد الله» يقول: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك فقد اعتبر وهو محق وعلى صواب أن جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله هو القول الفصل الذي لا حاجة بعده لسؤال غيره. فهو عليه الصلاة والسلام من لا ينطق عن الهوى وهو وحده الذي علّمه ربه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيماً وهو وحده الأعلم بالدين الذي جاء به من عند الله وهو الأعرف بما يرضي الله من قول وفعل وهو عليه الصلاة والسلام من له دون سواه ترتيب الأعمال من حيث أفضليتها وأولويتها وهما أفضلية وأولوية ذات مغزى

وهذا الحديث الذي بين أيدينا «قل آمنت بالله ثم استقم» خير دليل على ما نقول فقد جمع هذا الحديث فأوعى بكلمات محدودة مختصرة ولكنها ثرية وعميقة فبي كلمتين اثنتين اختصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام كله والفلاح كله والصلاح كله ولا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن أن هذا الاختصار مدعاة للاستهانة بالأميرين الذين أجاب بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم «الإيمان والاستقامة» وهل الدين كله إلا الإيمان بكل مكوناته الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره» ومقتضياته التي تدفع إلى إتيان الأوامر وإجتناب النواهي وذلك بأداء ما فرض الله على عباده «من صلاة وصيام وزكاة وحج» وترك كل ما حرمه الله على عباده من الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

الإيمان بالله يقتضي من صاحبه أن يستحضر عظمة الله وجلاله ونعمه وأفضاله وشديد عقابه وعذابه فإذا تغلغل هذا الإيمان في القلب أسعد صاحبه دنيا وأخرى وانعكس على كل تصرفاته فتجده مندفعاً إلى فعل الخير ومستكثراً منه طمعاً في رحمة الله وكرمه وجوده وإحسانه وتراه أيضاً خوفاً لله وقافاً عند حدوده والخشية من الوقوع فيما يغضبه من المعاصي والذنوب؛

إن الإيمان يقوى بالطاعات ويضعف بالمعاصي والذنوب: يقول عليه الصلاة والسلام «ألا وإن الإيمان يبلى كما يبلى الثوب فجددوا إيمانكم بملاقاة بعضكم البعض» وقال عليه الصلاة والسلام «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» فالإيمان القوي يحجز صاحبه عن المعصية خشية وخوفاً من الله.

وبين الإيمان بالله والاستقامة تلازم وقد عبرت عن هذه النزعة العملية أحاديث عديدة منها قوله عليه الصلاة والسلام «الإيمان هو ما قر في القلب وصدقه العمل» إن الإيمان تصديق بالجنان ونطق باللسان وعمل بالاركان.

والاستقامة مترتبة وناجمة عن الإيمان الصادق الراسخ الدافع لصاحبه إلى سلوك الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وقد نوه المولى جل وعلا بمن آمنوا ثم استقاموا حيث قال جل من قائل ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَتَخَفُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾.

* الاستقامة مشاعر خيرة في قلب المؤمن الذي لا مكان فيه للحقد والضغينة والكراهية.

* والاستقامة لسان عف لا يكذب ولا يغتاب ولا يسب.

* والاستقامة يد يسلم منها الناس فلا تمتد بالأذى والشر لأحد من عباد الله. فالمسلم هو من سلم الناس من لسانه ويده، ولا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وأحب العباد إلى الله أنفعهم لعباده.

* والاستقامة التزام سلوكي دائم ومتواصل وفي كل الأحوال والأوضاع «اتق الله حيثما كنت».

* والاستقامة مجاهدة متواصلة للنفس الأمارة بالسوء إنها جهاد متواصل وهي الجهاد الأكبر.

* والاستقامة هي علامة التدين الصادق الذي جسمه أحسن تجسيم وأتمه وأكملاه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام الذي كان خلقه القرآن وكان قريبا من الناس قريبا من الله وكان عليه الصلاة والسلام الأسوة والقدوة والموعظة المجسمة أمرنا الله جل وعلا أن نتبعه ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

وكعاداته أورد الشيخ الشبرخي في عند شرحه لهذا الحديث أثارا جديرة بالتعميم منها ما عرف به بعضهم،

* الاستقامة «فقال لا يطيقها إلا الأكابر لأنها الخروج عن المألوف ومفارقة الرسوم والعادات والقيام بين يدي الله على حقيقة الصدق».

* وقال البيضاوي «الاستقامة إتباع الحق والقيام بالعدل ولزوم المنهج المستقيم وذلك لا يحصل إلا لمن أشرق قلبه بالأنوار القدسية وتخلص من الكدورات البشرية والظلمات الإنسانية الطبيعية وأيده الله من عنده وقليل ما هم».

* وقيل «أن لا يختار العبد على الله شيئا».

* وقيل «لزوم الطاعة لله تعالى».

* وقيل «الإخلاص في الطاعة».

* وقيل «توبة بلا إصرار وعمل بلا فتور وإخلاص بلا التفات ويقين بلا تردد وتفويض بلا تدبير وتوكل بلا وهم وهذا مقام عزيز لا يحكمه إلا من تصفى كالإبريز».

* وقيل «المتابعة للسنة المحمدية مع التخلق بالأخلاق المرضية».

* وقيل «الإتباع مع ترك الابتداع».

* قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى «فاستقم كما أمرت» ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع القرآن آية كانت اشد ولا اشد عليه من هذه الآية ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه حين قالوا له قد أسرع إليك الشيب قال شيبتني هود وأخواتها

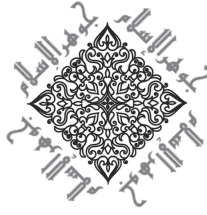
* واخرج ابن أبي حاتم لما نزلت هذه الآية شمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رؤي ضاحكا».

* قال الإمام القشيري «الاستقامة درجة لها كمال الأمور وتمامها وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ومن لم يكن مستقيما ضاع سعيه وخاب جده».

* اخرج الإمام احمد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «استقيموا ولن تحصوا». إن حديث (قل آمنت بالله ثم استقم) على قلة كلماته حديث عظيم جامع لخيري الدنيا والآخرة وهو عنوان من عناوين دين الإسلام وهو معبر عن خصوصية الإسلام المتمثل في التطابق بين الظاهر والباطن والقول والفعل.

إن هذا الحديث يستأصل الازدواجية والنفاق فالإيمان الحقيقي والصادق بالله جل وعلا ينبغي أن يتلازم معه السلوك القويم والخلق الكريم أي المعاملة للآخر أيا كان هذا الآخر قريبا أو بعيدا من الأصول أو من الفروع من الصغار أو من الكبار من الذكور أو من الإناث من المؤمنين أو من غير المؤمنين، حال المسلم مع جميع هؤلاء هو حال المؤمن والسلام والرحمة والرفق لا يصدر عن المسلم أدنى ضرر للآخر.

تلك هي الاستقامة الفعلية فمن كانت هذه حاله فهو المؤمن حقا والمؤمن إيمانا صادقا صحيحا وهذا هو الإيمان الفعلي العملي الذي يرضي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. وكم كان أبو عمرو سفيان بن عبد الله رضي الله عنه محقا وعلى صواب عندما توجه لرسول الله صلى الله عليه وسلم دون سواه يسأله عما لا يمكن أن يسأل عنه غيره ولذلك تلقى الجواب الضافي الوافي الشافي الدال على ما يرضي الله سبحانه وتعالى «قل آمنت بالله ثم استقم» نسأل الله تبارك وتعالى أن يهب لنا إيمانا صادقا راسخا قويا يدفعنا إلى سلوك الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه انه سبحانه وتعالى سميع مجيب.

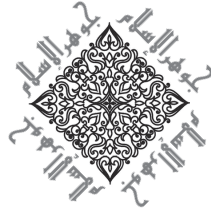


كفى عبثاً بالعقول !

بقلم الأستاذ إبراهيم الربو

قد لا تعلمون مقدار الضيق والأسف الذي انتابني وأنا استمع إلى حوار ساخن بين اثنين من المحسوبين على الوسط الثقافي الدعوي . ندمت حينها أن قادتني قدماي إلى ما يُفترض أن يكون نشاطا ثقافيا بمناسبة ذكرى الهجرة النبوية ومدلولاتها ، بعنوان (الهجرة النبوية دروس وعبر) ، كان أسفي أكبر وضيقني أشد أن أدرك أن شريحة ممن يُحسبون على الدين أو على الثقافة لا يهدرون أوقاتهم فقط في مناقشة قضايا غيبية لا طائل من وراء مناقشتها ، ولا منفعة من تداولها ، بل إنهم يعبثون بعقول الناشئة ويستهلكون طاقاتهم الفكرية في تتبع الغيبيات ومناقشة الخوارق ، وإظهار المشاحنات الفكرية والفقهية التي اتسمت بها عصور التردّي الثقافي للأمة الإسلامية حول بعض القضايا وكأنها من الضرورات التي يجب أن يعرفها أبناؤنا الذين قُدّر لهم أن يعيشوا القرن الواحد والعشرين ،!! لقد احتد النقاش بين اثنين من المشاركين حول اعتبار بناء نوح عليه السلام لسفينة بأمر من الله ، وشحنها بالذين آمنوا برسالته مع بعض الحيوانات والتوجه بها إلى الجودي هجرةً أو لا ،،، فهذا يصفها بالهجرة الأولى ، وذاك يعارضه ويعتبر الهجرة للحبشة هي الهجرة الأولى ، والثانية للمدينة ، ولا هجرة في الإسلام سواهما ،، ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكانت المعضلة أيسر والوطأة أخف ، لكن خلافهما تحوّل إلى سجال استخدمت فيه مختلف القذائف الفقهية والفكرية والتراثية والتاريخية وحتى الخرافية ، ليس فقط حول اعتبار رحلة نوح ومن معه هجرة أو لا ، بل تجاوزت ذلك إلى مناقشات لا تخلو من حدة حول

عدد الذين كانوا على ظهر السفينة ، وهل كان من بينهم أطفال أم لا ،!! فهذا لديه من المعلومات حولهم ما قد لا يعرفها حتى نوح نفسه ، وذاك يعارضه بقوة ويقدم معلومات مناقضة لما قاله زميله حول عدد الركاب وأعمارهم وأجناسهم ، فلم ينقصه سوى أن يمدنا بأرقام جوازات سفرهم ،،!!! إنه مشهد يدعو للرتاء أن يكون بيننا من يرى في مثل تلك القضايا والسجلات الساذجة والعقيمة حولها نوعاً من المعرفة المنسوبة للتراث الديني ويعتقد أنها جديرة بالمناقشة ،،، وإذا كانت هذه الواقعة هي أحدث هذيان كنتُ عليه من الشاهدين ، إلا أنه يظل مجرد مثل يمكن أن يُشار إلى الكثير مما هو على شاكلته ، قضايا وقصص بل وخرافات تدور حولها مساجلات ومناكفات لا طائل من وراء مناقشتها سوى الزج بالطاقات الفكرية في مثل ذلك الهراء ، وهي الطاقات التي يجب أن تُسخر للحاق بركب التقدم العلمي الذي تخلفنا حتى عن ذيله ، إضافةً إلى ما يحدثه ذلك من تشويش على جوهر ديننا الحنيف والزج بلب الدين في غيابة جُبِّ قصص وحكايات يقف العقل عاجزاً عن إدراكها ، وهو توجه يعزز قول المعادين للإسلام أو الجاهلين بحقيقته بأنه دين يفتقر للمنطقية ويعبث بعقول أتباعه ، ويشحن أذهانهم بمعلومات قوامها الغيبيات والهرطقات ،،!!! والحقيقة أن كتب التراث مليئة بقصص ووقائع بل وخرافات صيغت في أوقات مختلفة ولمآرب متعددة ، وبأقلام أناس تأثر بعضهم بديانات وثقافات وفلسفات مستوردة فغاصوا في بحور الغيب وقضوا وقتاً وجهداً في مناقشة قضايا لا سبيل لحسمها ، ولا إدراك لحقيقتها ، كخلق القرآن ورؤية الله وجنس الملائكة وأحوال يوم القيامة ومكان الصراط وموقع الجنة والنار ، إلى غير ذلك من الأمور التي حفلت بها مجلدات بنوء بحملها ذوو القوة منا ،،،!!! إن العقل الإنساني قد ارتقى في مدارج المعرفة ووصل فيها إلى محطات غير مسبوقة ، وسيستمر في هذا الارتقاء ليصل إلى اكتشافات واختراعات قد لا تخطر على بالنا نحن الذين نعيش اليوم فوق هذا الكوكب ، تماماً كما لم يخطر على بال الذين عاشوا منذ تسعة أو عشرة عقود أن يأتي يوم يتحدث فيه شخص من الأرجنتين فيسمعه في ذات اللحظة ويراه مباشرة شخص آخر في سفوح الهملايا ،،،!!! إنه العلم الذي حثنا الله عليه في أول كلمة نقلها جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ،،، أما أن نظل في ذيل الحضارة الإنسانية نختم ونتساجل حول مثل تلك القضايا ، ونحشو بها أدمغة أطفالنا فإنها لعمري مأساة حضارية سوف لن تبقينا فقط في ذيل الحضارة الإنسانية بل ستقذف بنا تحت أقدامها ، وهو موقع لا نرتضيه لأمة حملها الله أمانة تبليغ رسالته للعالمين بالعلم والمنطق لا بالخرافات والسفسطة ومحاولات اختراق حجب الغيب ،،،!!!



مفاهيم إسلامية

ضرورة التلازم بين عدل الحكام وأمانة العلماء وكرم الأثرياء

بقلم الشيخ الحبيب المستاوي - رحمه الله -

عدالة الحكام، وأمانة العلماء، وكرم الأثرياء، دعائم ثلاث عليها ترتكز سعادة المجتمع ويبني مجده وازدهاره. وانها بمثابة السور الحصين الذي يدرا عن الأمة قوارع الخطوب ويجعلها على جانب عظيم من القوة والمناعة.

وكيف ينأى عن الأمة التوفيق أو يخونها الحظ إذا كانت مصائرهما بأيدي أبناء بررة يقدمون مصلحتها على مصالحهم الشخصية ويرون أن سعادتهم جزء لا يتجزأ من سعادة أوطانهم ومواطنيهم وان ما هم فيه من بسط وعزة وجاه هو حق مشاع بينهم وبين إخوانهم الآخرين وإنما أرادت حكمة الله أن يكونوا قوامين عليها حارسين لها وموازنين قسط فيها إكراما من الله وامتحانا لهم. بل قد تذهب بهم تصوراتهم إلى أبعد من هذا وأعمق فيتصورون أنفسهم مثقلين بديون لا تفي أموالهم وجهودهم بأدائها وليست لدائن واحد حتى يتوارى المدين منه أو يقدم له المعاذير أو يتملقه بمعسول القول وعريض الابتسامة.

فلا غرو أن نراهم بعد هذا شموعا تحترق لتضيء على الناس ومطايا ذللا تحمل الكل الذي تقطعت به الأسباب وعناوين رحمة وعدالة وحب.

وهنا تتوثق الصلات وتتلاقح الأرواح. وتتصافى القلوب ويأتي التعاون المشع والبناء الذي من ورائه الازدهار والقوة والاستقرار وأي سعادة للمجتمعات البشرية بعد هذه السعادة؟

إن طبقة الحاكمين هي بمثابة العمود الفقري في الجهاز البشري منها تنبعث القوة وعنهما ينشأ الضعف كيف لا والحكمة الماثورة تقول «الناس على دين ملوكهم» وها هو الواقع التاريخي في بلادنا وفي غير بلادنا يحدثنا بأفصح لسان عن صدق هذه الحقيقة في جميع الأزمنة والأمكنة فكم قيض الله لأمم متفككة العرى، متمزقة الأواصر، تغط في نومها الثقيل، وترسف في قيود الدل، والهوان والفاقة. كم قيض الله لتلك الأمم في فتراتها هذه من رجال يقوم الواحد منهم مقام شعب بأسره فيبعث أمة وينشئ دولة ويبنّي مجدا ويخلف تراثا. وما ذلك إلا لان روحه الكبيرة المشعة سرت كالكهرباء في أنفس مواطنيه فألهمتهم المبادئ وشحذت منهم العزائم فأصبحوا رجلا واحدا وأبناء رجل واحد على غرارهم ينسجون وفي أجوائهم يحلقون - وهذه لعمرى هي جاذبية الأرواح التي لا تبلغ مداها أية جاذبية أخرى فهي جاذبية سماوية وأنى لجاذبية الأرض أن تطاول جاذبية السماء - رأينا هذا أو عشناه ونعيشه لتأخذ من بعض النفوس مأخذها عندما ترى المعجزة تتحقق في جيل واحد وفي أشخاص معينين.

نعم منيت الأمة في أمسها القريب بحكام يقولون أنهم منها وليسوا منها يعيشون في أبراجهم العاجية ويصرفون أمور الشعب بما تمليه عليهم العاطفة ويقودهم إليه الهوى وتجنس نبض الشعب فتجده ميتا أو كال ميت فيخامر ك اليأس وتكبر عليه أربعاء ثم تغيب عنه سنوات قلائل يبدل الله فيها حاله ويمن عليه من يشعره بالرسالة ويحسسه بالمسؤولية فإذا بأولئك الذين حسبته رفاتا يبعثون إلى الحياة من جديد على نمط غير الذي عهدتهم بالأمس يحملون نفوسا مليئة بالخير وقلوبا مشحونة بالعطف والمحبة والإيمان فتتلو قول الله سبحانه وتعالى بخشية وتفكر واعتبار ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ثم تقول صدق الله العظيم وصدق من قال (الناس على دين ملوكهم) (وإذا أراد الله بقوم خيرا ولى أمورهم خيارهم وإذا أراد الله بقوم سوءا ولى أمورهم شرارهم).

بهذا قال أستاذ البشرية الأول ومنقذها الأوحد سيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام الذي خط للناس طريق السعادة والفوز.

وبجانب هذه الركيزة العتيدة والدعامة المكيئة دعامة العدل الذي هو أساس العمران. تقف دعامة أخرى لا تقل عنها أهمية واعتبارا هي دعامة أمانة العلماء هؤلاء العلماء الذين اخذ الله عليهم ميثاقا أن لا يقولوا عليه إلا الحق. وبوأهم لقاء ذلك ارفع مكان تطمح إليه النفوس المؤمنة وهو وراثة الأنبياء. هذه الوراثة التي يجب أن تكون نسخة طبق الأصل، فالأنبياء صادقون وأمناء ومبلغون:

أفيمكن للوارثين أن لا يكونوا كذلك؟ الأنبياء يزهدون في متاع الدنيا ويعيشون عيشة تقشف ولا يشتررون بآيات الله ثمنا قليلا وكيف لا يكون العلماء كذلك؟

إن أمانة العلماء وإخلاصهم لله وللرسول وللأمة تفرض عليهم أن يقوموا بواجب النصـح والتبصير وان يسـخروا مواهبهم وإمكانياتهم للإرشاد والتوعية فيقاومون الانحرافات الخلقية ويغرسون الفضيلة في قلوب الأمة ويقتلعون رواسـب الرذيلة منها ولا يدخرون لأنفسهم طاقة فكرية يكون الوطن في حاجة إليها: فما هي إلا وديعة عندهم للناس عامة يجب عليهم أن لا يستأثروا بها وحدهم وإلا فإنهم قد خانوا الأمانة وليراعوا واجب الوراثة وأنئذ فمن يجيرهم من الله ومن نقمة شعوبهم التي أصبحوا غرباء عنها غامطين لحقها عليهم.

وإذا حلت القطيعة بين امة وعلمائها محل الاتصال وتزعزعت أركان الثقة المتبادلة. ولم يخلص العلماء للأمة ولم تحترم الأمة العلماء إذا تحقق كل هذا فبطن الأرض خير لهم من ظهرها.

وان الآيات القرآنية الكثيرة والأحاديث النبوية المتعددة . التي جاءت للرفع من شأن العلماء. وإنزالهم في الناس منزلة الصدارة لا تعني كلها إلا العلماء الذين يقومون بالواجب ويؤدون الأمانة ويتحلون بما تقتضيه صفة العلم أما غيرهم فلست في حاجة إلى تبيين مركزهم وجزائهم فهم يعلمون ذلك وكل الناس يعلمون مال الخائن للأمة المتخلي عن الواجب.

وإذا حظيت الأمة بعلماء يقدرـون رسالتهم وحكام يشعرون بواجبهم فليس من العسير عليها أن توجد الركيزة الثالثة من ركائز النهضة وهي سخاء أولي اليسار ذلك أن الموسرين ما هم إلا أفراد من مجموعات مأمورة بالطاعة لحكامها. وتشرب أرواح علمائها وتنسج على منوالهم. وصلاح هذه الطائفة مرتبط بصلاح المجموع وصلاح المجموع لا يتحقق إلا تبعا لصلاح الحكام والعلماء.

وإنني لواقـت تمام الوثوق من أن من جعل الله بأيديهم نعمة المال الذي هو قوام الأعمال هم غالبا وخصوصا في بداية أمرهم يعيشون على فطرتهم النظيفة ويتمتعون بجانب عظيم من الطيبة تلك الطيبة التي تبعد عنهم التعقيد والالتواء. ومن هنا يكون أهل الذكر والسلطان هم المكيف الذي يكيفهم ويكيف غيرهم وعليهم وحدهم المسؤولية أمام الله والأمة والتاريخ.



صَلَاةُ الْإِفْتَاءِ بِإِحْرَاقِ كِتَابِ الْإِحْيَاءِ لِحَجَّةِ الْإِسْلَامِ الْإِمَامِ أَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ (رَحِمَهُ اللَّهُ وَطَيَّبَ ثَرَاهُ)

بقلم الأستاذ صالح العود

باحث وكاتب / فرنسا

مَنْ يَجْهَلُ هَذَا الْإِمَامَ الْكَبِيرَ، وَالْمُصْلِحَ الدِّينِي وَالْاجْتِمَاعِي الشَّهِيرَ، إِلَّا ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ. وَهُوَ رَجُلٌ مَلَأَ سَمَاءَ الْعِلْمِ، وَتَرَبَّعَ عَلَى عَرْشِ الْعُلَمَاءِ، مِمَّا جَعَلَ النَّاسَ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ وَإِلَى عَظَمَتِهِ بِالْبَنَانِ فِي كُلِّ مَكَانٍ.. فَضْلاً عَمَّا خَطَّه يَرَاغُهُ مِنْ «آثَارِ» قَلَمِيَّةِ مُهِمَّةٍ، أَجْلَهَا وَأَنْفَعُهَا، كِتَابُهُ الْمَاتِيحُ: (إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ)، إِنَّهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ: أَبُو حَامِدٍ مُحَمَّدٌ الْغَزَالِيُّ الْمَتُوفِي سَنَةِ (505هـ = 1111م) عَنْ عَمْرِ حَفْلٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِخِدْمَةِ الدِّينِ مَا يُقَارِبُ خَمْسِينَ عَامًا أَوْ يَزِيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ وَطَيَّبَ ثَرَاهُ.

إِنَّ كِتَابَهُ هَذَا: (إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ) قَدْ شَرَّقَ وَغَرَّبَ، حَتَّى وَصَلَ صَدَاهُ وَهُدَاهُ كُلَّ مَكَانٍ، وَتَنَاوَلَهُ الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ بِالدَّرْسِ وَالتَّدْرِيسِ فِي أَقْصَى بِلَادِ الْغَرْبِ الْإِسْلَامِيِّ تَحْدِيدًا، بَلْ لَقَدْ وَصَلَ هُيَامَ (الْمَغَارِبَةِ) وَشَغَفَهُمْ بِهِ، أَنْ جَارَوْهُ فِي «التَّأْلِيفِ» عَلَى نَهْجِهِ وَمَنَوَالِهِ، وَهُوَ مَا فَعَلَهُ ثُلَّةٌ مِنْ عُلَمَائِهِمْ فِي أَزْمَنَةِ شَبِّهِ مُتْقَارِبَةٍ، مِنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ: «الْإِمَامُ حَسَنُ الْمَسِيلِيِّ (ت. نَحْوَ 580هـ) حَتَّى إِنَّهُ سُمِّيَ (أَبَا حَامِدٍ الصَّغِيرِ) لِتَأْلِيفِهِ كِتَابَ: (التَّفَكُّرُ فِيمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ السُّورُ وَالْآيَاتُ مِنَ الْمُبَادِئِ وَالْغَايَاتِ)؛ وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ كَلَامَهُ فِيهِ أَحْسَنُ مِنْ كَلَامِ أَبِي حَامِدٍ وَأَسْلَمَ». وَأَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الصَّنْهَاجِيِّ الْأَبْيَارِيِّ (ت. 616هـ) وَضَعَ كِتَابَ «سَفِينَةِ النِّجَاةِ» عَلَى طَرِيقِ الْإِحْيَاءِ، بَلْ قَالُوا: إِنَّهَا أَكْثَرُ إِتْقَانًا مِنْهُ، وَأَحْسَنُ مِنْهُ»، أَوْ عَلَى مَنَوَالِ أَبْوَابِ مِنْهُ»⁽¹⁾. إِلَّا أَنْ مِنَ الْأَسَفِ، بَلْ مِنْ سَفَاسِفِ الْأَنْحِطَاطِ، إِصْدَارُ الْمُرَابِطِينَ فِي عَهْدِهِمْ: أَمْرًا مُجْجَفًا، وَهُوَ الْحَجْرُ عَلَى

(1) عن مقدمة الأستاذ عبد الرحمان العمراني لكتاب (الحلال والحرام لراشد الوليدي / ص. 54)

تداول هذا الكتاب النفيس، ومنع قراءته، بل صدر أمرٌ عنهم بإحراقه، وإتلاف نُسخه؛ جاء «ذلك على يد علي بن يوسف بن تاشفين أول سنة 503 هـ = 1109 م، عن إجماع قاضي قرطبة: أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدّين (ت. 508 هـ = 1114 م)⁽¹⁾ وجمهور فقهاءها. [لكن الله تعالى سلّم]، إذ عاد للظهور مرةً أخرى في عصر بني مرّين، وظهرت منه نسخ عديدة، ويرجع ذلك إلى جماعة من العلماء والفضلاء، كانوا ضد الإفتاء والأمر بالإحراق، وانتصروا لأبي حامد، منهم: أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بـ «ابن النحوي» الذي كتب إلى أمير المسلمين في شأن الأمر الذي أصدره بالإحراق، وفي شأن إفتاء فقهاء قرطبة. حدث أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي بسنده عن أبي الحسن علي بن حرزهم قال:

«لما وصل إلى فاس كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف بالتجريح على كتاب (الإحياء) وأن يحلف الناس بالأيّمان المُعلّظة أن كتاب (الإحياء) ليس عندهم، ذهبُ إلى أبي الفضل ابن النحوي استفتيته في تلك الأيّمان، فأفتاني بأنها لا تُلزم، وكانت في محمّله أسفار، فقال لي: «إن هذه الأسفار من كتاب (الإحياء) ووددتُ أني لم أنظر في عمري سواها. وكان أبو الفضل قد انتسخ (الإحياء) في ثلاثين جزءاً، فإذا دخل شهر رمضان قرأ في كلّ يوم جزءاً».

ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله الجذامي من أهل المرية (ت: 509 هـ) فإنه ناهض أمر الإحراق، وأفتى بتأديب المُحرّق، وتضمينه القيمة، وحرّر بذلك فتوى سلّمها لفقهاء المرية، فكتب كل واحد منهم فيها بخط يده: «وبه يقول فلان».

وكان أبو مدين شعيب بن الحسن الأنصاري (ت: 594 هـ) يقول: طالعت أخبار الأولياء من عهد أويس القرني إلى زمننا، فما رأيت مثل «الشيخ أبي يعزى»، وطالعت كتب التذكير، فما رأيت مثل كتاب (الإحياء).

وختاماً أقول ومن الله تعالى الرضا والقبول: فمن شاء مزيد التعرّف على فحوى هذه الفتوى الجائرة ونقضها، والرجوع عنها إلى الحق والصواب، من تقديم د. عبد الرحمان العمراني لكتاب: (الحلال والحرام) لأبي الفضل راشد بن أبي راشد الوليدي. طبع وزارة الأوقاف المغربية سنة (141 هـ = 1990 م) - فهو في المراجع التالية:

- البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب / لابن عذاري. • الاستقصاء في تاريخ المغرب الأقصى / أبو العباس الناصري. • المُعجّب في تلخيص أخبار المغرب / عبد الواحد المرّاكشي. • نظم الجُمان / لابن القطّان.

(1) قاضي الجماعة بقرطبة. وكان حافظاً ذكياً، أديباً شاعراً، لغوياً أصولياً ولي قضاء قرطبة سنة 490 هـ ولم يزل قاضياً بها إلى أن توفي سنة 508 هـ (الصلة: 2 / 539 / بغية الملتمس: 103).



7 كتب لحجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي يتولى تحقيقها الدكتور محمد أحمد الشريف

صدرت عن المؤسسة الملكية للفكر الإسلامي - عمان/ الأردن ضمن سلسلة
تراث الامام ابي جامد الغزالي رحمه الله وبتحقيق وتقديم الأستاذ الدكتور محمد
أحمد الشريف الكتب الآتية

1. الرسالة الدنية

2. ميزان العمل

3. فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة

4. المنقذ من الضلال

5. بداية الهداية

6. الجام العوام عن علم الكلام

7. جواهر القرآن.

وقد تفرغ لتقديم هذه السلسلة من تراث حجة الإسلام الامام محمد بن
محمد ابو حامد الغزالي رحمه الله (ت 505هـ/ 1111م) الأستاذ الدكتور محمد
احمد الشريف (المتخرج من من قسم الفلسفة في كلية التربية بالجامعة الليبية في
بنغازي 1961 وحصل على درجة الماجستير والدكتوراه من جامعة شيكاغو..
و درس بكلية التربية في الجامعة الليبية وتولى عمادتها وتولى وزارة التعليم

والتربية (من 1972 إلى 1980) ودرس وشارك في عديد اللجان والمؤسسات الثقافية والعلمية وترأس لجنة استراتيجية التربية في البلاد العربية (1973/ 1978) ومن سنة 1980 وإلى سنة 2011 تولى الأمانة العامة لجمعية الدعوة الإسلامية العالمية وهو عضو في مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي (الأردن) وظهر كتابه الأول عام 1975 ghazali theory of virtue

وقد تفرغ الدكتور محمد احمد الشريف لاخراج هذه السلسلة من تراث الامام الغزالي والمتمثلة في العناوين السالفة الذكر فحققتها تحقيقا علميا تلافى به ما وقع فيها من أخطاء صوبها بما جمعه من اصول المخطوطات من مختلف مكاتب العالم في البلدان العربية والإسلامية وغيرها بين مطبوع ومخطوط ليخرج هذا العمل العلمي الذي بذل فيه المحقق جهدا كبيرا ووقتا طويلا على احسن ما يكون من دقة بتخريج نصوصها من آيات واحاديث واثار مع الالتزام بعدم الاثقال بالشروح والتعليقات الكثيرة مقتصرًا فقط بتوضيح ما دعت الحاجة الماسة اليه.

وقد تضمن الكتاب الأول من هذه السلسلة تقديمًا عرف به المحقق تعريفًا واف بالامام الغزالي مستعرضًا مسيرة حياة حجة الإسلام لتكون مدخلا بين يدي القارئ وهو يشرع في قراءة مختلف عناوين هذه الكتب الواحد تلو الآخر.

ولم يغفل الدكتور محمد احمد الشريف عن شكر كل من ساعده على انجاز هذا العمل الذي وفق الى القيام به والتفرغ له (وذلك من توفيق الله له) . كما انه في تحقيقه لهذه السلسلة من كتب الامام الغزالي استعرض اعمال من اشتغلوا على كتب الغزالي وتولوا نشرها واخراجها مضيفا الى ذلك وهو الهام جدا في هذا العمل استجلاب العديد من المخطوطات الفريدة لهذه الكتب لتكتمل لديه وسائل الإخراج العلمي المحقق المدقق وهو ما يبدو جليا في كل جزء من أجزاء هذه السلسلة مما يدفع كل من يطلع عليها من خلال العمل الذي قام به الدكتور محمد احمد الشريف الى إعادة قراءتها (ومما يغريه بذلك) ما تميزت به طباعتها من شكل واختيار لحجم الحرف المناسب والمساعد على الانهماك في قراءة متأنية لكل ما كتبه وألفه الامام الغزالي صاحب احياء علوم الدين والمنقذ من الضلال وهذه الكتب التي حققها الدكتور محمد احمد الشريف.

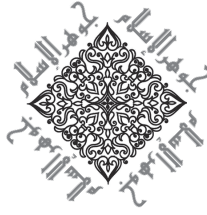
ان تفرغ الدكتور محمد احمد الشريف في هذه المرحلة من عمره المبارك امد الله في أنفاسه وزاد بجهوده المباركة النفع للامة ودينها فيه إشارة لاتخفى على كل لبيب الى أهمية إعادة قراءة الامام الغزالي وحاجة الامة اليها بكل فئاتها بما فيهم العلماء والدعاة في هذه المرحلة من تاريخها فان ذلك من شأنه ان يصحح الكثير من المفاهيم ويضع النقاط على الاحرف.

وحجة الإسلام الامام الغزالي من خلال تراثه القديم المتجدد يقدم لقارئه خير زاد ومرجع لتحديد المرامي والاهداف حتى توتي جهود العلماء والدعاة الثمرة المرجوة وهي أولا وقبل شيء اخلاص العمل لله رب العالمين والذي بدونه لا يتحقق مامول ولا مرجو لا في عاجل الحياة ولا في اجلها.

لقد بدا الدكتور محمد احمد الشريف حياته العلمية بالامام الغزالي من خلال الاطروحة التي اعدّها في جامعة شيكاغو سنة 1975 وهاهو ذا يعود الى الامام الغزالي محققا لاثاره العلمية من خلال هذه السلسلة وهذه العناوين التي نامل ان تتبعها عناوين أخرى في قادم السنوات. يعود الدكتور محمد أحمد الشريف للقيام بهذا العمل بعد تجربة ثرية في العمل الإسلامي لعقود طويلة وعلى امتداد العالمين العربي والإسلامي وخارجهما وكأني به ينصح الامة بكل فئاتها نصيحة خبير مجرب و(الدين النصيحة) بالعودة الى قراءة الامام الغزالي ففي ذلك الفائدة الجمة وفيها خير زاد لسلوك الطريق القويم والصراط المستقيم الذي به تتحقق للمسلم السعادتين العاجلة والاجلة.

لم ارد بهذا التقديم لسلسلة تراث الغزالي ان اقف عند اجزائها الواحد تلو الاخر فذلك ما يمكن ان يتولاه غيري ونعد بنشره تباعا ان شاء الله في الاعداد القادمة لمجلة جوهر الإسلام انما أردت مجرد العرض السريع الذي يلفت الانتباه الى أهمية هذا العمل العلمي الذي انجزه مشكوراً الدكتور محمد احمد الشريف.

كتبه محمد صلاح الدين المستاوي



العلامة محمد الطاهر ابن عاشور .. رائد الإصلاح والتجديد في العالم الإسلامي

بقلم : الأستاذ الدكتور زهيري مصراوي

سفير جمهورية إندونيسيا بتونس

زخر صرح الإسلام بعلماء عظماء غادرونا تاركين بصمتهم وإبداعهم الفكري والمعرفي، ليهتدي بهم الأمم والأقوام، فكثيرا منهم بذلوا حياتهم للبشرية تاركين وراءهم زادا يرثه أجيال وراء أجيال.

يمر يوم 12 أوت 2022، نصف قرن على وفاة قامة من قامات التعليم الزيتوني وعالم تونس الفذ، العلامة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، إن هذا الاسم ليس عادياً في التاريخ الإسلامي العربي، بل هو أبرز مفسري القرآن الكريم في العصر الحديث، حيث ألف أشهر كتاب تفسير للقرآن بعنوان «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد في تفسير الكتاب المجيد» والمعروف بـ«التحرير والتنوير» ، كان ولا زال من المراجع الأساسية في تفسير القرآن الكريم في العالم الإسلامي. فهي ليست مناسبة للوقوف عند مكانة الرجل العلمية والاجتماعية فحسب، بل هي فرصة ترتقي إلى استخلاص أقوم المسالك التي اهتدى إليها الشيخ المصلح في تجديد الفكر الديني وتبين منهج الخطاب الإصلاحي في تشكيل ملامح الإسلام الوسطي المتجدد، ونحت صورة مشرقة للنضال في سبيل رؤية تجديدية في مناهج التعليم وخوض تجربة مقاصدية في فهم النص الديني وتأويله.

ولد العلامة محمد الطاهر بن عاشور سنة 1879 بتونس وتحديدًا بمدينة المرسى، وسط أسرة علمية عريقة تمتد أصولها إلى الأندلس. حيث نبغ من هذه الأسرة عدد من العلماء الذين درسوا بجامع الزيتونة منارة العلم في شمال إفريقيا. برز العلامة بن عاشور في عدد من العلوم ونبغ فيها، كاللغة والأدب والشريعة، كان متقنًا اللغة الفرنسية، إلى جانب بروزه كمراسل في مجمع اللغة العربية في دمشق والقاهرة، وتولى عدة مناصب منها العلمية والإدارية كالتدريس والقضاء والإفتاء ثم عُيِّن شيخًا لجامع الزيتونة المعمور. كما ألف الشيخ العديد من الكتب دلت على تبحره في شتى العلوم الشرعية، أبرزها «أليس الصبح بقريب» الذي بين فيه آراءه لإصلاح التعليم في تونس مع تقديم تصور كامل لكيفية إصلاح وضع التعليم بما يفضي إلى تطوير المعرفة والإرتقاء بالإنسان، علاوة على كتابه التحرير والتنوير والذي يعد من أشهر كتب التفسير كما ذكرنا سابقًا حيث يتكون من 15 مجلد وقد أمضى فيه قرابة الأربعين عامًا حيث اشتمل على كثير من الفوائد واللطائف والتحريرات، مع الحرص على تلمس الحكم من الأحكام والتشريعات، بالإضافة إلى كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية، وكتاب أصول النظام الاجتماعي في الإسلام وغيرها من الكتب القيمة والدواوين الشعرية.

ركز العلامة محمد الطاهر بن عاشور على إصلاح التعليم والنهوض به، فقد كان رافضًا للحفظ والتلقين، حيث ألف كتاب «أليس الصبح بقريب» كمرجع أساسي في كيفية إصلاح التعليم وتطوره وتقدمه وجعله عاملاً أساسياً في الإرتقاء بالعقل، وقد قال في كتابه المذكور: «ليس العلم رموزاً تحل، ولا كلمات تحفظ ولا إنقباضاً وتكلفاً، لكنه نور العقل واعتداله، وصلاحيته لاستعمال الأشياء فيما يحتاج إليه منها ... ما كانت العلوم إلا خادمة لهذين الغرضين، وهما ارتقاء العقل، واقتدار صاحبه على إفادة غيره».

ثار العلامة بن عاشور على المناهج المدرسة بالزيتونة والتي اعتبرها إضاعة للوقت باعتبارها تلقن دون التفكير والإنتاج والنقد والتغيير، فقد طبق أولى خطوات أفكاره عندما تولى مسؤولية الإشراف على التعليم الزيتوني بصفته «شيخ الجامع الأعظم»، حيث عدّل مناهج التعليم وأساليب تدريسه، علاوة على إضافة التناول المقاصدي للشريعة الإسلامية للابتعاد عن التقليد وعدم إعمال العقل والفكر وهي من الأسس التي حث عنها الدين الإسلامي.

تعد إندونيسيا أكبر دولة إسلامية في العالم، حيث يبلغ عدد سكانها 260 نسمة، منهم 90 بالمئة مسلمين، وكان تاريخ دخول الإسلام إلى أندونيسيا من خلال الأولياء الصالحين في القرن الخامس عشر هم نشروا الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة حيث مشهور بمبدأ «لسان الحال أفصح من لسان المقال». فاعتنق الإندونيسيون الإسلام أفواجا بلا إكراه ولا سيف ولا عنف إلى أن أصبحت إندونيسيا أكبر دولة للمسلمين في العالم من حيث العدد والمسار الديمقراطي والتعايش السلمي بين الأديان، ويتميز تحديد المناهج التي اعتمدتها في بناء ثقافة إسلامية مرتكزة على الوسطية والاعتدال والتسامح.

وفي هذا الصدد للعلامة محمد الطاهر ابن عاشور أثر كبير في إندونيسيا من خلال مؤلفاته القيمة في مقدمتها كتاب التحرير والتنوير في فهم وتطبيق جواهر القرآن في إندونيسيا. وقد قرأه ملايين الأندونيسيين من الذين يجيدون اللغة العربية خاصة من هم خريجو الأزهر الشريف، علاوة على كتابه أصول النظام الاجتماعي في الإسلام الذي اشترته من مكتبة دار السلام عندما كنت طالبا بجامعة الأزهر الشريف، والذي له أثر في الإصلاح الاجتماعي بجمهوريتنا والذي يدعم فيه العلامة بن عاشور نظرية الدولة في الإسلام التي تقوم على عدة أصول على غرار الديمقراطية، العدل، المساواة..، وقد تأثرت بكتبه أكبر جمعية إسلامية رسمية بالعالم وهي «جمعية نهضة العلماء في إندونيسيا» وهي تسعى للتفسير المعتدل للأحكام الشرعية والدينية مقتفية أثر العلامة محمد الطاهر بن عاشور خاصة في الجانب المقاصدي. وقررت الجمعية مقاصد الشريعة الإسلامية كمنهج تفكير لاستنباط الأحكام الشرعية.

فرحم الله علامةً وفقهياً لا صنو له ولا ند في التجديد والإصلاح والفهم المقاصدي للشريعة، كرس حياته لخدمة الأمة الإسلامية ونهضتها الفكرية دون شطط أو تقويت بعد أن تهافتت عليها القوى الخارجية من جهة، والجمود الفكري من جهة أخرى.



فضيلة الشيخ عبد العزيز الزغلامي رحمه الله (مسيرة نضال لقاض زيتوني)

بقلم: د. أحمد السهيلي

يعدّ الجامع الأعظم أكبر جامعة إسلاميّة في العالم العربيّ والإسلاميّ على الإطلاق، فهو من أقدمها نشأة وأعرقها دوراً وريادة، فقد تخرّج منه ودرّس فيه عدد غفير لا يحصى من علماء ومفكّري الإسلام في الدّاخل والخارج، وتوارث العلم الزيتونيّ أجيال وأجيال من صفوة العلماء الأخيار في شتى الاختصاصات، جمعاً بين العلوم النقليّة والعقليّة خاصّة في العصر الحديث.

كان من بين هؤلاء النخبة من أعلام الزّيتونة المعاصرين فضيلة الشّيخ عبد العزيز الزغلامي، الذي تميّز عن كثير من أقرانه بجمعه بين العلوم الشرعيّة والعقليّة، والعلوم القانونيّة، فكان له الأثر والبصمة البالغة في المجالين إلقاء وكتابة.

هو الشّيخ عبد العزيز بن الطّاهر بن الحاج عمر الزّغلامي، ولد صبيحة الأربعاء الفاتح من ربيع الثّاني سنة 1338 هـ الموافق لـ 24 ديسمبر 1918 م، بسيدي أحمد الصّالح من معتمديّة القلعة الخصباء من ولاية الكاف، في أسرة عريقة مجاهدة اشتهرت بنضالها في مكافحة المستعمر الفرنسيّ، فقد حوكم والد الشّيخ عبد العزيز الزّغلامي، الطّاهر الزّغلامي، سنة 1921 م من قبل محكمة الجنايات من أجل العصيان المدنيّ، كما شارك جدّه الحاج عمر الزّغلامي في ثورة علي بن غدام سنة 1864 م، إذ كان أحد قادتها واضطّر بعد ذلك إلى دخول الجزائر والبقاء بها إلى 1882 م، ثم عاد إلى مسقط رأسه. كما استشهد شقيق هذا الأخير، صالح الزّغلامي، خلال إحدى معارك التّحرير ضدّ المستعمر الغاشم.

أمّا والدّة الشّيخ فهي السيّدة مهريّة بنت محمّد الخلفاوي أصيلة نفس الجهة التي ولد فيها الشّيخ وهي من سلالة عائلة جزائريّة. أنجبت السيّدة مهريّة من زوجها الطّاهر

الرّغلامي تسعة أولاد، ستّة ذكور وثلاث إناث، أكبر الأولاد جميعا هو الشّيخ عبد العزيز الرّغلامي ثمّ نجد محمّد والجمعي والأمين ومحمّد الجريدي (سمّاه أبوه بهذا الاسم محبةً ووفاء لشيوخ كان صديقا له) ثمّ أصغرهم عمّار الرّغلامي.

أمّا بالنسبة إلى الإناث نجد منية ومباركة وريح، وللشّيخ أخت أخرى من الأب حيث أنّ والدته الشّيخة السيّدة مهريّة قد توفّيت وهي في مقتبل العمر وسنّها آنذاك خمس وثلاثون سنة. وقد حدّثني الشّيخ محمّد البارودي عن كرامة تحقّقت لشيخنا قبل ولادته، وفحواها أنّ أباه الطّاهر عندما تزوّج بقي مدّة لم ينجب، وصادف أن زاره بمنزله بالكاف جمع من المشايخ والصّالحين من بينهم الشّيخ المكيّ بن عزّوز رحمه الله، وبعد تناول الطّعام علم الشّيخ المكيّ بأنّ الطّاهر لم يرزق بأولاد، فرفع يديه ودعا قائلا «اللّهم ارزق سيّ الطّاهر أولادا ويكون أولهم عالما». فاستجاب الله لدعاء هذا الشّيخ العالم الصّالح حيث رزق الله تعالى والد الشّيخ الطّاهر بتسع أولاد، ستّة ذكور وثلاث إناث، كان أكبرهم جميعا الشّيخ عبد العزيز الرّغلامي الذي نشأ عالما زيتونيّا وقاضيا شغوبا بالعلم والمعرفة. وبعد أن حفظ الشّيخ نصيبا من القرآن في كتاب القرية وبعض المتون الفقهيّة واللّغويّة، أرسله والده للدراسة في الجامع الأعظم (أدام الله عمرانه). وفي العاصمة تزوّج الشّيخ وهو ابن عشرين سنة تقريبا من السيّدة حفصية بنت محمّد بن عبد الله، التي أنجب منها ثمانية أولاد، أربعة ذكور وأربع إناث وهم كالاتي من الكبير إلى الصّغير، فاطمة الزّهراء وهي أكبر بناته وقد سمّاه على اسم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلّم السيّدة فاطمة الزّهراء، ثمّ ابنه عبد الحميد مجاز في الآداب، ثمّ ابنه محمّد المنصف الذي سمّاه على اسم سيّدي محمّد المنصف باي، ممّا يوحي بالنّفس النّضاليّ للشّيخ ومناصرتة لقضايا الحقّ، ثمّ ابنته فوزيّة، ثمّ ابنه عبد المجيد الذي توفّي في حادث مرور في شهر رمضان وعمره ستّ وعشرون سنة، وقد تأثّر الشّيخ وتألم الألم الكبير لفقد ابنه وكان يقول دوما «إنّ فقدان الولد حرقه في الكبد لا تشفى إلى الأبد»، ثمّ ابنه المنجي وهو يشغل الآن محاميا وأستاذًا بكلية الحقوق، ثمّ ابنته رشيدة وهي التي شغلت منصب رئيس دائرة بمحكمة التّعقيب، ثمّ نجد بعد ذلك ابنته زينب وهي الصّغرى. وفي سنة 1952 تحصّل الشّيخ على شهادة العالميّة في أصول الدّين، وقد تتلمذ على نخبة من كبار شيوخ الزّيتونة، وعلى رأسهم شيخ الإسلام محمّد العزيز جعيطّ وسماحة الشّيخ العلّامة محمّد الطّاهر ابن عاشور، وابنه (فقيه العلم والأخلاق والشّيم كما كان يسمّيه شيخنا) وهو العلّامة البحر الشّيخ محمّد الفاضل ابن عاشور، وكان معجبا به ملازما له في الدّروس وفي المحاضرات بالخلدونيّة. وقد تأثّر شيخنا أيّما تأثّر عند وفاة الشّيخ الفاضل فقال أبياتا يرثيه فيها:

فما تذكرت فراق فاضلنا رحمه إلا بكيت بكاء الطفل من يتم وما تفكرت شيخنا في دفنه رحمه إلا احترقت بنار الحزن والألم كما تتلمذ شيخنا أيضا على الشيخ العلامة عمر العداسي الذي كان يكنّ له حبا كبيرا، وقد لمست ذلك بنفسني لما زرت شيخنا في مرضه في منزله الكائن بمنفلوري صحبة الشيخ محمد مشفر، حيث نهض من فراشه مستندا علي وعلى الشيخ مشفر وأمر أن نقوده إلى غرفة مجاورة حيث أطلعنا على جزء من مكتبته، ثم التفت إلى صورة معلقة في إطار كبير للشيخ عمر العداسي وهو في محراب جامع الزيتونة، وقال لنا بتأثر (هذا سيدي). كما تتلمذ الشيخ على شيوخ أعلام آخر أمثال الشيخ محمد البشير النيفر والشيخ العلامة محمد الزغواني، والشيخ أحمد المهدي النيفر.

وفي ميدان القضاء، زاول شيخنا تعليمه بالمدرسة العليا للحقوق بتونس ثم شارك في مناظرة القضاة الشرعيين ونجح فيها بامتياز، وبعد نجاحه في مناظرة القضاة الشرعيين، رجع الشيخ الزغلامي إلى الكاف، حيث تولّى التدريس بالفرع الزيتوني بمدينة الكاف، والخطابة بالجامع الكبير. ثم تقلّد بها خطة الإفتاء ليياشر بعدها القضاء الشرعي بكل من عين دراهم والكاف، ومكث هناك زهاء أربع سنوات، وبعد توحيد القضاء، عاد الشيخ إلى تونس العاصمة حيث تدرّج في مختلف الخطط والوظائف العدلية، منها مستشار بمحكمة الاستئناف بتونس، ثم قاضي باللجنة الجهوية لتصفية الأحياس بولاية تونس والأحواز، ثم وكيل لرئيس المحكمة العقارية، ثم مستشار بمحكمة التعقيب، ثم عُيّن الشيخ بعد ذلك رئيس دائرة بمحكمة التعقيب إلى أن أحيل على التقاعد سنة 1989، ثم في سنة 1993 عُيّن رئيسا شرفيا بمحكمة التعقيب.

كما تولّى الخطابة بجامع «الزراعية» بباب البحر المعروف بجامع «الزيتونة الصّغير» عوضا عن أستاذه العلامة الشيخ أحمد المهدي النيفر رحمه الله، وكان ذلك في ماي سنة 1960. وفي فترة الثمانينات أصدر الرئيس السابق زين العابدين بن علي قرارا يقضي بإعادة الاعتبار لجامع الزيتونة، وقد فرح كثير من الناس بهذا القرار.. وكنت من بين هؤلاء، فقد حضرت حلقة علمية للشيخ الزغلامي، وقد بدأ في تدريس الفقه المالكي من خلال حاشية العدوي على الشرح المسمى «كفاية الطالب الربّاني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني» للعلامة أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن خلف المنوفي المصري الشاذلي، وقد استمعت له وهو يشرح «باب ما يفعل بالمحتضر والميت». ولكن للأسف هذه النعمة لم تدم طويلا، وخاب أمل التونسيين في انبعاث الجامع الأعظم من جديد.

كما دُعِيَ الشَّيْخُ فِي الثَّمَانِينَ لِلتَّدْرِيسِ كَأَسْتَاذِ مُحَاضِرٍ بِصِفَةِ «مَعَاوَنٍ خَارِجِيٍّ» بِكُلِّ مِنَ الْمَعْهَدِ الْأَعْلَى لِلشَّرِيعَةِ وَالْمَعْهَدِ الْأَعْلَى لِأَصُولِ الدِّينِ طَوَالَ سَبْعِ سَنَوَاتٍ مُتَتَالِيَةٍ، كُتِّفَ خِلَالَهَا بِتَدْرِيسِ مَادَّتِي الْفِقْهِ وَالْأَحْوَالِ الشَّخْصِيَّةِ لَطَلَبَةِ الْمَرْحَلَةِ الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثَةِ، وَقَدْ اسْتَفَادَ مِنْ دُرُوسِهِ عَدَدٌ هَامٌ مِنْ طَلَبَةِ الْجَامِعَةِ.

كما اخْتِيرَ الشَّيْخُ فِي 9 جَوَانِ 1989 عَضْوًا بِالْمَجْلِسِ الْإِسْلَامِيِّ الْأَعْلَى. وَلَقَدْ كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ الْمَشْجَعِينَ عَلَى تَحْفِيزِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِاعْتِبَارِهِ مِنَ الْأَعْضَاءِ الْمُؤَسِّسِينَ لِرَابِطَةِ الْجَمْعِيَّاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَالنَّائِبَ لِرَأْسِهَا وَهُوَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الشَّاذِلِيُّ النَّيْفَرُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

كما انْخَرَطَ الشَّيْخُ مِنْذُ شَبَابِهِ بِالْحِزْبِ الْحَرِّ الدَّسْتُورِيِّ الْجَدِيدِ وَأَسْهَمَ فِي الْحَرَكَةِ الْوُطْنِيَّةِ، إِذْ رَغِمَ تَوَلَّيْهِ الْقَضَاءُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ تَلْبِيَةِ نَدَاءِ الْوَاجِبِ الْوُطْنِيِّ، فَحَوَّلَ بِمَعِيَّةِ رِفَاقِهِ مَنْطِقَةَ الْكَافِ إِلَى أَكْبَرِ مَعَاقِلِ الْحَرَكَةِ الْوُطْنِيَّةِ، فزِيَادَةُ عَلَى الْمُحَاضِرَاتِ وَالدَّرُوسِ الَّتِي كَانَ يَلْقِيهَا بِصِفَةِ دُورِيَّةٍ فِي مُخْتَلَفِ مَنَاطِقِ الْجُمْهُورِيَّةِ بِتَكْلِيفٍ مِنَ الْقِيَادَةِ الْمَرْكَزِيَّةِ لِلْحِزْبِ فَقَدْ شَارَكَ فِي تَنْظِيمِ الْاجْتِمَاعَاتِ الْوُطْنِيَّةِ وَالِدَّعْوَةِ إِلَى الْمَقَاوِمَةِ وَجَمْعِ التَّبَرُّعَاتِ وَالْأَسْلِحَةِ وَنَقْلُهَا إِلَى الْمُقَاوِمِينَ الْمَجَاهِدِينَ، وَكَانَ يَتَوَلَّى رِبْطَ الصَّلَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقِيَادَةِ الْمَرْكَزِيَّةِ بِالْعَاصِمَةِ مُسْتَغَلًّا فِي ذَلِكَ حِصَانَتَهُ الْقَضَائِيَّةَ، فَسَخَّرَ سَيَّارَتَهُ الْوُظُفِيَّةَ لِنَقْلِ الْمَفْرَقَاتِ وَالْأَسْلِحَةِ وَالْأَدْوِيَّةِ إِلَى الْمُقَاوِمِينَ، وَفِي فِتْرَةٍ مَكُونَةٍ بِالْكَافِ كَانَتْ كَثِيرًا مِنَ الْاجْتِمَاعَاتِ السِّيَاسِيَّةِ تُعْقَدُ فِي دَارِهِ وَيَحْضُرُهَا مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْمُنَاضِلِينَ السِّيَاسِيِّينَ. وَلَقَدْ كَانَتْ لِلشَّيْخِ عِلَاقَةٌ وَطِيدَةٌ بِمُنَاضِلِينَ سِيَاسِيِّينَ مَشْهُورِينَ مِنْهُمْ عَلِيُّ الْبَلْهَوَانِ، مَنْجِي سَلِيمٍ، أَحْمَدُ التَّلِيلِي، الطَّيِّبُ الْمَهِيرِي، وَغَيْرُهُمْ.

وَلَقَدْ كَانَ الشَّيْخُ مُلَازِمًا لِأَسَاتِذَةِ الْعِلْمِ مُحَمَّدِ الْفَاضِلِ ابْنِ عَاشُورٍ الَّذِي كَانَ يَرَأْسُ الْإِتِّحَادَ الْعَامَ التُّونِسِيَّ لِلشَّغْلِ فِي جَمِيعِ اجْتِمَاعَاتِهِ مُتَّصِلًا فِيهَا بِالْجَمَاهِيرِ، كَمَا شَارَكَ ضَمَّنَ الْوَفْدَ السَّرِّيَّ الَّذِي قَابَلَ مُحَمَّدَ الْأَمِينِ بَايَ إِثْرَ حَوَادِثِ تَازَرْكَةَ، وَقَدْ أَسْنَدَ لَهُ فِي الثَّمَانِينَ وَسَامِيَّ الْإِسْتِقْلَالِ وَالْجُمْهُورِيَّةِ مِنَ الصَّنْفِ الثَّلَاثِ اعْتِرَافًا بِنُضَالِهِ مِنْ أَجْلِ تَحْرِيرِ الْوَطَنِ.

كُتِبَ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الزَّغْلَامِيِّ عِدَدًا مِنَ الْمَقَالَاتِ وَالِدِّرَاسَاتِ الدِّيْنِيَّةِ فِي قَضَايَا الْعِبَادَاتِ وَالْمَعَامَلَاتِ فِي مُخْتَلَفِ الْمَجَالَاتِ الْمُتَخَصِّصَةِ وَالْمُوسَّعَاتِ الْفَقْهِيَّةِ وَالْجَرَائِدِ الْيَوْمِيَّةِ، فَقَدْ كُتِبَ فِي مَجَلَّةِ جَوَاهِرِ الْإِسْلَامِ وَمَجَلَّةِ الْهَدَايَةِ وَجَرِيدَةِ الصَّبَاحِ وَالْمَجَلَّةِ الصَّادِقِيَّةِ وَالْمُوسَّوَعَةِ الْفَقْهِيَّةِ فِي الْكُوَيْتِ.

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لَخُطْبِهِ وَمَقَالَاتِهِ فَإِنَّ النَّظَرَ فِي دِرَاسَاتِهِ وَمَقَالَاتِ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَحَتَّى خُطْبِهِ الَّتِي كَانَ يَلْقِيهَا فِي جَامِعِ الزَّرَّارِيَّةِ بِالْعَاصِمَةِ، يَلَاظُ حُضُورًا كَبِيرًا لِلْجَانِبِ

الأخلاقيّ الإصلاحيّ الواقعيّ في خطابه للنّاس. فقد كان رحمه الله يربط دوماً بين الجانب الخلقيّ القيميّ والجانب الإصلاحيّ إيماناً منه بأنّ عمليّة الإصلاح الخارجيّ على مستوى الفرد والمجموعة، ثمّ الشّعوب، ثمّ الأُمّة الإسلاميّة، هي رهينة ومشروطة بعمليّة تغيير داخليّ باطنيّ للنّفس والقلب والعقل، والتّحليّ بمحاسن الأخلاق وآداب الإسلام. وكان رحمه الله كثيراً ما يدعو في خطبه ودروسه ومقالاته إلى غرس الرّوح الجماعيّة لدى النّاشئة للقضاء على أسباب الفتنة والفرقة والتّشتّت التي يريد أعداء الإسلام وخاصة اليهود الصّهيّنة أن يغرسوها بين الشّعوب العربيّة الإسلاميّة، في إطار الثّورة الثقافيّة المضادّة لإبعاد المسلمين عن قضاياهم الأساسيّة والتي على رأسها القضية الفلسطينيّة، التي كانت تمثّل الهاجس الأكبر في الخطاب الإصلاحيّ عند شيخنا رحمه الله.

وقد كان رحمه الله مثال الخطيب النّاجح الذي يشدّ إليه النّاس ويتعهّدونهم بالموعظة الحسنة ويدفعهم إلى العمل الصّالح المفيد وينير عقولهم بأنوار العلم والمعرفة والتّقوى، حتّى اكتسب حبّ المصلّين وتقديرهم، وكان في خطبه متّصلاً بالواقع وتغيّراته فكان ينزل خطابه الدّينيّ على واقع التّونسيّين خاصّة وواقع الأُمّة الإسلاميّة عامّة،

وقد بدا ذلك واضحاً من خلال نفسه النّضاليّ وخاصّة عبر مسيرة الكفاح المشترك التّونسيّ الجزائريّ ضدّ المستعمر الفرنسيّ وكان يرى أنّ المحنة واحدة وكانت له علاقات وطيدة مع شخصيّات جزائريّة نضاليّة بحكم قربهم جغرافياً وروحياً. وكان للمقاومين الجزائريّين نشاط على المنطقة الحدوديّة بجهة الكاف، حيث كان الشّيخ يحثّ التّونسيّين في خطبه على مساعدة إخوانهم الجزائريّين مادياً ومعنوياً، وكان يدفع النّاس أن يهبوا صفّاً واحداً لمؤازرة إخوانهم الجزائريّين بالمال والعتاد والأرواح معتبراً ذلك واجباً دينياً ووطنياً

وكان للشّيخ روّاد وأحباب يأتونه من جهات مختلفة للاستماع له والافادة من خطبه الثّريّة، واستمرّ الشّيخ في مسيرته المنبريّة بالكاف إلى أن رجع إلى تونس العاصمة في سنة 1960 حيث انتقل للعدليّة وعيّن مستشاراً بمحكمة الاستئناف بعد توحيد القضاء، ورغم تحمّله أعباء القضاء العدليّ بالمحاكم التّونسيّة، واصل الشّيخ رسالة الخطابة فقد انتقل بنفس الخطّة إلى جامع باب البحر المعروف بـ«جامع الزراريّة» الذي يعرف أيضاً بـ«جامع الزيتونة الصّغير» خلفاً عن شيخه الأستاذ العلّامة الشّيخ أحمد المهدي النّيفر، واستمرّ في أداء هذه الأمانة على أحسن وجه مدّة طويلة تجاوزت الأربعين سنة إلى أن أقعده المرض. هذه المدّة الطويلة التي قضّاها في الخطابة أفرزت كمّاً هائلاً من الخطب في مختلف المواضيع، لو تتبّعناها لاستغرق ذلك منّا وقتاً طويلاً. فقد تناول

الشيخ في خطب كثيرة مسائل الإيمان والعقيدة وكان من حين لآخر يردّ على المذاهب الفكرية والفلسفية القديمة والمعاصرة والقوميات والعنصريّات مبيناً منهج الإسلام القويم ورؤيته الشاملة للإنسان والحياة داعياً إلى الالتفاف حول وحدة العقيدة. ورغم أنّ الشيخ مالكيّ المذهب، فإنّه قد بلغني من بعض طلابه أنّه كان يصليّ صلاة الغائب على شهداء فلسطين وقد صلى على الشيخ أحمد ياسين حين اغتالته يد الغدر والإجرام الاسرائيليّة.

هكذا كان شيخنا فارساً من فرسان المنابر خطيباً مجتهداً وإماماً ورعاً محبّاً للخير والعدل ساعياً في النفع والإصلاح.

أمّا بالنسبة إلى دروس الشيخ الخاصّة، فقد دعي في الثمانينات للتدريس كأستاذ محاضر بصفة «معاون خارجي» بكلّ من المعهد الأعلى للشريعة والمعهد الأعلى لأصول الدين طوال سبع سنوات متتالية، كلّف خلالها بتدريس عدد من المواد الأساسية منها مادّتي الفقه والأحوال الشخصية لطلبة المرحلة الثانية والثالثة، وقد استفاد من دروسه عدد هام من طلبة الجامعة أذكر منهم زميلي الأستاذ محمّد عزيز الساحلي بن الأستاذ المؤرّخ المحقّق حمّادي الساحلي الذي أخبرني أنّه استفاد من علم الشيخ وأدبه الشيء الكثير.

أمّا ما يخصّ جلساته العلميّة، فمن المجالس الخاصة التي كان يحضرها الشيخ عبد العزيز الزّغلامي رحمه الله مجلس الحديث والفقه بمنزل العلامة الشيخ محمّد الشاذلي النيفر «بمنفلوري» كان الشيخ عبد العزيز الزّغلامي يحرص على حضور هذا المجلس مساء كل يوم أربعاء مع مجموعة من المشايخ الفضلاء والأساتذة الأجلاء نخصّ بالذكر منهم: عثمان الحويمدي، وحسين الدهماني، والمختار النيفر، ومحمّد عزيز الساحلي، وأحمد منصور، (من فلسطين). وكان الشيخ رحمه الله يتردّد على مجلس الحديث الشريف بجامع «الشربات» بمنطقة الحجامين، الكائن بنهج أبي القاسم الشابي بالعاصمة صبيحة يومي الاثنين والخميس ويجمع ثلّة من المشايخ الأفاضل والأساتذة الأجلاء نخصّ بالذكر منهم المشايخ عمر العداسي، أحمد شلبي، الصادق بسيس، محمّد الاخوة، مصطفى المؤدّب، محمّد عزّ الدين سلام، محمّد المكاوي، عبد الوهاب سعادة، رحمهم الله جميعاً يتولّون دراسة كتاب «الجامع الصحيح» للإمام البخاري بشرح القسطلاني، وكتاب ترتيبات الشيخ البنّا لمسند الإمام أحمد بن حنبل وذلك بإشراف العلامة الشيخ محمّد الزغواني طبّ الله ثراه الذي بوفاته انتقلت رئاسة المجلس إلى فضيلة الشيخ عمر العداسي رحمه الله. وقد أخبرني الشيخ محمّد البارودي

أنّ الشّيخ الزّغلامي رحمه الله حدّثه بأنّ شيخ الأزهر عبد الحليم محمود رحمه الله كان يزوره في منزله بمنفلوري عندما جاء لتونس.

إنّ نشاط الشّيخ العلمي والقضائي مع التزاماته الأخرى بمسؤوليّة الخطابة والوعظ ومجالس العلم، كلّ ذلك لم يمنعه من الإشعاع بفكره ومنهجه الإصلاحية وروحه النضاليّة على كثير من بلاد الإسلام وحتّى في بعض بلاد الغرب، وكان اهتمام الشّيخ في أوّل أسفاره بالقطر الجزائري بحكم أنّ الشّيخ أصيل ولاية الكاف المتاخمة للحدود الجزائرية، إضافة إلى أنّ ثلّة من شيوخ الجزائر وعلمائها قد درسوا بالجامع الأعظم، فكانت تربطهم بالشّيخ رابطة الرّمالة من جهة ورابط النضال ضدّ المستعمر الفرنسي الغاشم من جهة أخرى. وقد كان للشّيخ علاقات وطيدة مع رموز الإصلاح والنّضال في الجزائر أمثال الشّيخ المصلح المشهور عبد الحميد ابن باديس، ومحمّد البشير الإبراهيمي، والعربيّ التّبسي، وغيرهم. وكانت له صلة بالشّيخ المناضل علّال الفاسي والحاجّ إبراهيم الكتّاني من علماء المغرب وزعمائها. وزار الشّيخ فلسطين سنة 1383 هـ الموافق لـ 1963 وكانت القضية الفلسطينية شغله الشّاغل وهاجسه الأكبر حيث كان يلهم بها في كلّ مؤتمر وكلّ ندوة شرقاً وغرباً، وقد برز ذلك من خلال خطبه ودروسه ومقالاته التي كانت مشحونة بنفسيّة النّضالي والحقوقية نصرة لقضايا الخير والعدل، فكان يقول دائماً «...القدس قطعة من وطني الإسلاميّ الكبير قبل أن يكون قطعة من وطني العربيّ الصّغير وفي عنق كلّ مسلم له حقّ واجب الأداء وذمام تتأكّد رعايتها حتّى يتحرّر»

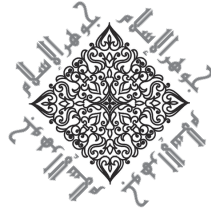
وقد نشرت له مجلّة جوهر الإسلام مقالات مستفيضة حول قضية فلسطين العربية والإسلام، وقد شارك الشّيخ في المظاهرات التي خرج فيها التونسيون سنة 1355 هـ الموافق لـ 1936 م ضدّ الانتداب الإنكليزي. كما زار الشّيخ العراق حيث اختير لتمثيل تونس في أعمال اللجنة التحضيرية للاجتماع الإسلاميّ الثاني المكلف بإنهاء الحرب بين العراق وإيران، والتي انعقدت ببغداد من 22 إلى 25 أفريل 1985 م. كما سافر الشّيخ إلى مصر وكانت له علاقة وطيدة بمشايع الأزهر وعلمائه وعلى رأسهم شيخ الأزهر عبد الحليم محمود رحمه الله، كما شارك الشّيخ في المؤتمر التأسيسي لمجمع الفقه الإسلاميّ بجدة الذي كان عضواً فيه في أوّل أعماله بمكّة المكرمة من 26 إلى 28 من شعبان 1403 هـ الموافق لـ 7 و8 و9 جوان 1983 م. وخلال موسم الحجّ في 11 ذي الحجة 1409 هـ الموافق لـ 14 جويلية 1989 م،

كلّف الشّيخ الزّغلامي، باعتباره عضو المجلس الإسلاميّ الأعلى بتونس، من قبل وزارة الحجّ والأوقاف بالمملكة العربية السّعودية بإلقاء محاضرة خلال الندوة

الإسلامية السنوية الكبرى التي نظمتها الوزارة في منى وعنوانها «الإسلام والتحديات المعاصرة» وقد كانت مداخله الشيخ تحت عنوان «التحدي الاجتماعي الكامن في مشكلة الفقر». وسأذكر بعضاً مما جاء فيها لأنها تكشف عن منهج الشيخ في الدعوة ورؤيته الإصلاحية وفكره المستنير. وحمل الشيخ في مداخلته الرؤساء والملوك والأثرياء مسؤولية الوضعية المتردية لأمة الإسلام. في نهاية هذه المداخله، اقترح الشيخ جملة من الحلول العملية للرفع من مستوى الأمة وإنقاذها مما تردت فيه فكان من بين هذه الحلول:

- دعوة الدول الغنية إلى مواساة ومساعدة شقيقاتها من الدول الفقيرة حتى لا تقع في مخالب الأعداء والمتربصين.
- سحب الأرصدة من الدول التي لا تدين بالإسلام لاستثمارها في المشاريع العامة للأمة الإسلامية لتعود عليها بالنفع العظيم.
- تأسيس منظمة إسلامية اقتصادية مهمتها تنظيم التبادل الاقتصادي والتجاري لسد احتياجات المسلمين حتى لا يجد الأجنبي مدخلا لاستنزاف ثروة البلاد الإسلامية والتحكم في خيراتها ومصيرها.
- من خلال هذه المداخله، نتبين المنهج الفكري للشيخ ورؤيته الإصلاحية والنظرة الاستشرافية خاصة من خلال هذه الحلول التي تقدم بها للقضاء على مشكلة الفقر والتخلف في الدول الإسلامية الفقيرة،
- والشيخ هنا قد وضع إصبعه على موطن الداء وهي لعمرى حلول جذرية ناجعة لو طبقت ودخلت حيز التنفيذ لتعافت الأمة ولتحسن المستوى العام للمسلمين ولكن للأسف لا يزال حال المسلمين على ما هو عليه بل إن مؤامرات أعداء الأمة على شعوب الإسلام قد استفحلت وتعاضمت الفتن واتسعت الهوة بين أغنياء الأمة وفقرائها، وتعاضم حرص الأثرياء والرؤساء على ثرواتهم ومناصبهم ولكن مع ذلك لا ينبغي أن نفقد الأمل ولا أن نياس من روح الله، فعسى الله تعالى أن يفرج عن هذه الأمة بأناس يحسنون قيادتها.

وفي يوم الخميس 13 ذي الحجة 1429هـ الموافق ل 11 ديسمبر 2008، انتقل الشيخ العلامة عبد العزيز الزغلامي إلى جوار ربّه بعد أن عاش تسعين سنة مملوءة بالنضال والنشاط العلمي والمعرفي والدعوي، وصلى عليه الشيخ محمد مشفر برغبة من ابن الشيخ الأستاذ المنجي ودفن بمقبرة الزّلاج، فرحم الله شيخنا وأسكنه فسيح جنّاته وإنا على فراق الأخيار لمحزونون وإنا لله وإنا إليه راجعون.



خطبة الجمعة

في استقبال العام الهجري الجديد 1444 *

الحمد لله مستحق الحمد ومستوجب الشكر على نعمه التي لا تحصى ومنه العظمى وأعظمها بعثه سيد الأنام بدين الإسلام عليه الصلاة والسلام. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ند الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا. وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أرسله الله بالهدى ودين الحق بشيرا ونذيرا ورحمة للعالمين صلى الله عليه وعلى آله الأطهار وأصحابه الأبرار من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم ونهج نهجهم صلاة وسلاما دائمين متلازمين ما تعاقب الليل والنهار صلاة يتضاعف أجرها وثوابها صلاة تكون نورا وضياء لأبصارنا وشفاء لأمراضنا وصلاحا لأعمالنا ومفتاحا لقبول دعائنا.

وأوصيكم بما أوصي به نفسي بتقوى الله فهي خير زاد يتزود به المؤمن ليوم الحساب. فاللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها. أما بعد، أيها المسلمون ها نحن نلج عاما هجريا جديدا نسأل الله أن يهله علينا باليمن والبركة والتوفيق وبما يرضيه عنا.

عام جديد يعود علينا لا ندري ماذا تخبئه لنا الأقدار فيه فاللهم سلم وبارك لنا فيه. وكم في الهجرة من العبر والدروس وكم فيها من المواعظ لمن يتدبر وكم كان الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ملهما وهو المحدث الذي كثيرا ما وافقت موافقه مراد الله وهو من قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر) وقال (عمر مع الحق يميل حيث مال) كم كان رضي الله عنه ملهما ومسددا عند ما اختار للأمة أن يكون لها تاريخها الذي تتميز به والذي يذكرها

* خطبة الجمعة القاها الشيخ محمد صلاح الدين المستاوي بجامع المركب الإسلامي البحيرة تونس (8 محرم 1444 هـ / 5/8/2022).

بأمجادها ويربط بين ماضيها المجيد التليد وحاضرها الذي ينبغي أن يكون نسجا على منواله سائرا على خطاه (فكل خير في اتباع من سلف) .

وتاريخ الإسلام كل أحداثه جديرة بالوقوف عندها واتخاذها مبتدأ للتاريخ . المولد النبوي وما أدراك ما المولد النبوي . والبعثة المحمدية وما أدراك ما البعثة والفتح فتح مكة فتح الفتوح ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وكمال الدين ونزول قوله جل من قائل ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ في يوم عرفة في حجة الوداع وما أدراك ما حجة الوداع وما تضمنته خطبة الوداع من وضع للنقاط على الأحرف في كل ما يتعلق بعلاقة المسلم بربه وما تقتضيه من تسليم له جل وعلا بالوحدانية وتخصيصه بالعبادة فلا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى لا ينبغي على المؤمن أن يتعبد سواه كما لا ينبغي له أن يستعين بغيره لأن غير الله لا يملك نفعا ولا ضرا ﴿إِنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا نَسْتَعِينُ﴾ .

وما تضمنته هذه الخطبة في يوم الحج الأكبر من تحديد وتبيين لحقوق المسلم على أخيه المسلم ومن تذكير منه عليه الصلاة والسلام وتشبيه لحرمة المسلم بحرمة الشهر الحرام والبلد الحرام مع التحذير من رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يمكن أن تقع فيه الأمة من بعده وللأسف الشديد حيث قال عليه الصلاة والسلام (لا تنقلبوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعضا) .

كل تلك الأحداث (المولد والبعثة والفتح وإعلان كمال الدين وتمامه) جديرة بأن تتخذ منطلقا لتاريخ المسلمين ولكن سيدنا عمر رضي الله عنه اختار منها الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة باعتبارها فيصلا وفارقا بين عهدين: عهد التأسيس في مكة وقد امتد لثلاث عشرة سنة وعهد إرساء أسس المجتمع الإسلامي بكل خصائصه ومميزاته في المدينة المنورة .

والمرحلة المدنية من حياة الرسالة المحمدية انبنت على أسس متينة بين أفرادها وبدأت بما ينبغي أن تكون به البداية أي بالفرد . فإذا صلح الفرد صلحت الأسرة وإذا صلح الفرد صلح المجتمع والعكس صحيح . وبذلك بدأت كل الرسالات وبذلك بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما أذن الله لرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام بالهجرة التي أعد لها أسباب نجاحها سواء كان ذلك بما هيأه لا صحابه في الهجرة الأولى والثانية إلى بلاد الحبشة حيث ذلك الملك العادل (النجاشي) الذي لا يظلم عنده أحد .

وبمن استقبلهم عليه الصلاة والسلام في مكة من أهل المدينة ممن عرض عليهم الرسالة في مواسم الحج والذين بايعوه بيعة أولى وثانية وأرسل معهم من أصحابه السابقين في الإسلام من يعلمهم دينهم

وبما أعده مع صاحبيه أبي بكر وعلي رضي الله عنهما من كل أسباب نجاح هجرته ولحاقه بأصحابه الذين سبقوه إلى المدينة. فعلي رضي الله عنه استبقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ليؤدي للناس أماناتهم وهي حقوقهم التي لا يمنعهم منها اختلاف الدين ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾. وأبو بكر رضي الله عنه الذي تجند هو وكل أسرته ومن تحت إمرته لنيل شرف إنجاح الهجرة (أسماء ذات النطاقين أم عبد الله بن الزبير وعبد الله بن أبي بكر وراعي الغنم والدليل والرفيق العارف بالطريق).

كل ذلك تجندت له الأسرة البكرية أسرة الصديق القائل فيه ربه ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ والقائل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو وزن إيمان هذه الأمة بإيمان أبي بكر لرجح إيمان أبي بكر).

وسيدنا أبو بكر رضي الله عنه هو ثاني اثنين من الرجال في الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وثاني اثنين في الحفاظ على الإسلام كلا لا يتجزأ فهو من وقف صامدا شامخا راسخ العقيدة عند ما ترزع إيمان كبار الصحابة لما التحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى حيث قام في الناس خطيبا (أيها الناس من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ومن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات) ثم تلا عليه قول الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾.

وقد انقلب على الأعقاب بعض من الأعراب الذين قال الله تبارك وتعالى فيهم (الأعراب أشد كفرا ونفاقا). وقال ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أسلموا ظاهرا وأضمروا الكفر والنفاق باطنا ولذلك امتنعوا لما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى عن أداء الزكاة أخت الصلاة وأحد أركان الإسلام. فما كان من الصديق إلا أن أخرج جيشا لقتالهم قائلا (والله لا أفرق بين أمرين جمعهما الله في كتابه أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة والله لو منعوني عقالا كانوا يعطونه لرسول الله لقاتلتهم عليه)، (أي حتى إن نطقتم ألسنتهم بالشهادتين حتى وإن صلوا وصاموا وحجوا ولكنهم لامتناعهم عن أداء

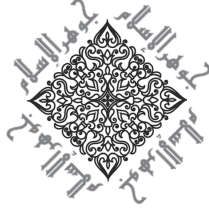
الزكاة عدهم الصديق كفارا لإنكارهم معلوما من الدين بالضرورة. فأركان الإسلام (الشهادتان والصلاة والصيام والزكاة والحج كل لا يتجزأ) بها ومع بعضها البعض يكتمل صرح الإسلام وبنائه وبانخراط أحد الأركان ينخرم صرح الإسلام.

ولما وصل الركب الميمون ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة وقد دعا الله وهو يودع مكة أن يدخله ربه مدخل صدق وأن يخرج به مخرج صدق. فكانت المدينة هي مدخل الصدق وكان فيها المحيا والممات فقد طمأن رسول الله ﷺ الأنصار عندما ظنوا أنه سيبقى في مكة بعد الفتح، قال لهم: (المحيا محياكم والممات مماتكم) وقد اعتبر جمهور العلماء أن المدينة هي أفضل بقاع الأرض وبالخصوص المكان الذي يرقد فيه سيد الأولين والآخرين عليه الصلاة والسلام والذي لا يزال المسلمون يشدون إليه الرحال من كل بقاع الأرض مرددين قوله جل من قائل ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ جاؤوك في قائم حياتك وبعد انتقالك إلى جوار ربك.

وفي المدينة المنورة وبمجرد وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط الترحاب الشديد والفرحة العارمة بدأت مرحلة جديدة فقد كان أول ما بادر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وضع أسس مسجده الشريف ثاني الحرمين خط أسسه حيث بركت ناقته المأمورة (القصواء) وانطلق في تشييده ليكون قلب المدينة النابض ومنطلق حياة المجتمع وقطب الدائرة منه المنطلق وإليه العودة ومنه يتزود المؤمنون بخير زاد. وبعد ذلك بادر عليه الصلاة والسلام إلى القيام بالمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين أخوة تتجاوز أخوة الأرحام والأنساب والأجناس أخوة في الله والله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

والخطوة الثالثة التي بادر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي سنه لأول دستور للمواطنة يجمع بين المسلمين وبقية أهل المدينة من غير المسلمين ليعرف كل طرف ماله وما عليه في مساواة وعدل يتمتع بها كل طرف لا يمنعه من نيل حقه مانع اختلاف الدين إذ (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي).

هذه عباد الله المسلمين بعض محطات الهجرة التي نحيا بها العام الهجري الجديد 1444 هـ جعله الله عام يمن وبركة وخير وصلاح أعمال لجميع المسلمين إنه سبحانه وتعالى سميع مجيب. أقول قولتي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولوالدي ولوالديكم إنه هو الغفور الرحيم.



علماء غادرونا...

نقيب الاشراف السيد عبد الهادي بركة شيخ الطريقة الشاذلية المشيشية في المغرب في ذمة الله

بلغنا بمزيد الاسى والحسرة نبا وفاة نقيب الاشراف السيد عبد الهادي بركة شيخ الطريقة الشاذلية المشيشية في المغرب (تطوان منطقة الشمال حيث المولى عبد السلام بن مشيش) تغمده الله بواسع رحماته واسكنه فراديس جنانه ورزق أهله وذويه آل بركة الكرام جميل الصبر والسلوان.

*كان آخر لقاء لي به رحمه الله في الموعد السنوي لزيارة ضريح المولى عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه في شهر ربيع الاول 1443 هـ/ 2021 م الماضي وكان مجلسا مليئا بالأنوار والأسرار والتجليات في رحاب المولى عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه حيث تعالت الأصوات بقراءة الصلاة المشيشية مشفوعة بالادعية والضراعات الخاشعة إلى الله (في أعلى جبل «لعلم»).

*كان السيد عبد الهادي بركة رحمه الله محفوفاً بالبركة من مختلف الاجيال ومن مختلف المراتب الاجتماعية (ومنهم الوزير والنائب والاعلامي والاديب) وكان معهم مريدو الطريقة الشاذلية المشيشية وأحفاد المولى عبد السلام.

كان الموعد من غير تنسيق سابق ولا مبرمج ولكن الاقدار الإلهية شاءت أن يقع الاجتماع بالسيد عبد الهادي بركة رحمه الله وما كنت اظن انه آخر لقاء بيننا .

* كان لقاء وداع وقد حرص رحمه الله على ان اكون ضيفا معهم عقب هذا اللقاء ولكن التزامات العودة إلى الرباط حالت دون ذلك على أمل أن يتجدد اللقاء في اقرب فرصة للنظر في استئناف تنظيم منتدى الشاذلية المشيشية بعد التعافي من آفة الكورونا .

*علما وأنني تشرفت صحبة جمع كريم قبل سنوات بالمشاركة في المنتدى الأول وقد دعاني للمشاركة فيه السيد عبد الهادي بركة رحمه الله وكان من ابرز الحاضرين فيه فضيلة الشيخ علي جمعة حفظه الله وشخصيات عديدة من المغرب ومن خارج المغرب.

* وكان المنظم والمنسق والداعي والمضيف لهذا المنتدى الروحي الشاذلي المشيشي الأول هو السيد عبد الهادي بركة رحمه الله واسكنه فراDIS جناH وجعل البركة والفضل في (آل بركة وفي السادة الشاذلية المشيشية) وإنا لله وإنا إليه راجعون.

مولاي عبد الله الشريف الوزاني رحمه الله المغادر على عجل

وغادرنا إلى دار البقاء صباح يوم الاحد 4 ذي الحجة 1443هـ / 3 جويلية 2022م فضيلة الاستاذ مولاي عبد الله الشريف الوزاني رحمه الله واسكنه فراDIS جناH احد أعلام الفكر والدعوة إلى الله على النهج الإحساني الرباني المحمدي في المغرب الشقيق .

*عرفته قبل سنوات في ملتقيات حضرتها في فاس ومداغ بالمغرب وفي باريس بمناسبة مئوية سيدي احمد العلوي رضي الله عنه في الندوة التي انتظمت في رحاب اليونسكو وكنا على موعد لزيارة المقام والمغارة الشاذلية وسيدي بوسعيد وسيدي محرز وجامع الزيتونة المعمور شقيق القرويين والقيروان شقيقة فاس. ولكن مشيئة الله سبقت ولا راد لمشيئته.

*كان مولاي عبد الله الشريف الوزاني في تلك اللقاءات نجما وخطيبا مفوها يشد إليه أسماع المشاركين يخاطبهم باللسانين العربي والفرنسي الذين يمتلك ناصيتهما ويطوعهما لتقديم الصورة الجميلة لإسلام الربانية والمحبة المحمدية. إسلام السلام والرحمة والسماحة والاعتدال والتعايش بين جميع الناس ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

* خصائص تشربها - رحمه الله - منذ نعمة أظفاره ورثها عن أسلافه آل الوزاني الكرام عليه وعليهم من الله الرحمة والرضوان،

وقد عبر لي عن تشرفه باستضافتي في (وزان) لما أعلمته برغبتي في تأدية زيارة لها وأنا في طريقي إلى مولاي عبد السلام ابن مشيش شيخ شيخنا أبي الحسن الشاذلي وجد جدنا سيدي عبد الله بوجليدة رضي الله عنهم ونفعنا ببركاتهم.

*في أوج العطاء وأنضجه وابلغه رحل مولاي عبد الله الشريف الوزاني رحمه الله إلى دار البقاء راضيا مرضيا وملتحقا بصفوة سبقوه اذكر منهم صديقه الأستاذ محمد بن بركة رحمه الله مجددا لوعة وحسرة وحزنا شديدا على فراقه في انفس كل من عرفوه من قرب وعرفوا دماثة خلقه ورفعة أدبه مع اخوته من العلماء والمفكرين ومع بقية الناس.

*رحم الله الفقيد مولاي عبد الله الشريف الوزاني وانزله الفردوس مع الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام الذي طالما شنف الاسماع بمدحه والتعبير عن شديد تعلقه به وباله وأصحابه عليهم من الله الرحمة والرضوان ورزق أسرته وكل آل الوزاني (آل سيدي علي الشريف رضي الله عنه في وزان (شمال المغرب) جميل الصبر والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

*وهكذا يرحل الأخيار معجلين إلى ربهم الواحد تلو الآخر ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ تاركين فراغا لا يملأ وحسرة عليهم لا تنقضي... انا على فراقهم لمحزونون ولا نقول إلا ما يرضي الرب هم السابقون ونحن بهم لاحقون على حسن الختام ان شاء الله.

كتبه محمد صلاح الدين المستاوي

من مؤلفات العلامة فضيلة الشيخ عبد الله بن بية (رئيس منتدى تعزيز السلم ابو ظبي رئيس مجلس الامارات للافتاء الشرعي)

* تنبيه المراجع في تاصيل فقه الواقع

* مشاهد من المقاصد

* صناعة الفتوى وفقه الأقليات

* مقاصد المعاملات ومراصد الواقعات

* سد الذرائع وتطبيقاته في مجال المعاملات

* توضيح أوجه الاختلاف في مسائل من معاملات الأموال

إلى جانب عناوين أخرى وفتاوى وبيانات وورقات عمل قدم بها دورات مؤتمرات منتدى السلم.



يسألونك قل

من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين

بقلم الشيخ محمد الحبيب النفطي - رحمه الله -

حول التداوي بالمحرمات

السؤال: يقول السائل، نحن نعرف أن الخمر حرام ولكن إذا أصبح دواء لبعض الأمراض فهل يصير حلالاً أم لا؟ فمشكلتي هي أنني أصبت بمرض السعال من جراء شرب الماء البارد منذ مدة طويلة وألزماني هذا المرض الإقامة في المستشفى عدة مرات ولكن كل الفحوص لم تأت بنتيجة وأخيراً أخبروني أن دواء السعال هو الخمر فأمروني بأن آخذ لتراً من الخمر ورطلاً من السكر ثم أضعهما فوق النار حتى يصير الخمر مع السكر نصف لتر وفي كل ليلة وكل صباح أتناول منه كأساً. سيدي مع العلم ان المرض أنك قواي وأتعبني كثيراً فهل يجوز لي في هذه الحالة أن أستعمل هذه الخلطة كدواء حتى أشفى؟ سيدي أرجو أن تمدني بالإجابة الصحيحة لأن الداء مر والله يوفق الجميع .

الجواب: شفاك الله يا بني من هذا الداء الذي تشكوه فإنه القادر على كل شيء وهو سبحانه وحده الذي بيده الداء والدواء ولكن اعلم يا بني ان الله تعالى لم يحرم شيئاً على المسلم إلا وقد سلب المصلحة أو المنفعة عن ذلك الشيء الذي حرمه. قال صلى الله عليه وسلم (إن الله أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء فتداؤوا ولا تتداؤوا بمحرم) رواه أبو داود وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام لرجل سأله عن حكم التداوي بالخمر (إني أصنع الخمر للتداوي بها؟) فأجابه الرسول عليه السلام (إنها ليست بدواء ولكنها داء) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي وعن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم

عليكم) أخرجه البيهقي وصححه ابن حبان وعليه يا بني ان كنت ممثلاً لأوامر الله مجتنباً لنواهيه فلا تفكر في استعمال هذا الخليط من الخمر والسكر الذي أخبرت عنه بانه نافع لشفائك من مرضك فمن يصدق بهذا الخبر؟ على انه ربما يقول قائل ان بعض العلماء أفتوا بالترخيص في استعمال بعض المحرمات كدواء لكن هذا الترخيص في استعمال بعض المحرمات كدواء مشروط بان يتعين المحرم كدواء بحيث لا يوجد غيره من الحلال الطيب وبشرط ان يصفه طبيب مسلم ماهر في طبه ملتزم بممارسة شعائر دينه عقيدة وعملا وحينئذ يدخل هذا المريض المتداوي بما حرم الله في زمرة المضطرين الذين قال الله تعالى في حقهم ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ الآية 119 من سورة الأنعام والله اعلم

الصلاة الوسطى

السؤال: أما بعد... فإني أطرح عليكم سؤالاً طالما سألت عنه الكثير ولكن لم يعطوني جواباً مقنعاً، يقول جل وعلا ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ ما السر في التأكيد بالمحافظة على الصلاة الوسطى بالخصوص؟ إذا كانت الصلاة الوسطى المقصود بها صلاة العصر فكيف يستطيع المرء المحافظة عليها إذا علمنا أن موعدها يحل عندما يكون الإنسان في عمله ولا يستطيع القيام بها حاضرة فيضطر إلى جمعها مع صلاة المغرب فما الحكم في هذا الوضع؟

الجواب: بنيتي العزيزة، قال الله تعالى ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ الآية من سورة البقرة. بنيتي الكريمة ان الله تعالى قد أمرنا بالمحافظة على الصلوات عموماً ثم خص الصلاة الوسطى بالتأكيد على المحافظة عليها، والمحافظة على الصلوات تعني أدائها في الوقت المختار المعين لها شرعاً فلا يجوز تأخير الصلوات عن أوقاتها المختارة الا لعذر من نوم أو نسيان ثم المحافظة على الصلوات تعني كذلك القيام بشروط صحتها من طهارة خبث (نجاسة) وحدث واستقبال قبله وستر عورة بالنسبة للرجل من السرة الى الركبتين وبالنسبة للمرأة كل بدنهما إلا الوجه والكفين فلا تسترهما عند تأدية الصلاة كما تعني المحافظة على الصلوات الايتان بفرائضها وسننها ومستحباتها وتجنب مكروهاتها فضلاً عن مبطلاتها كل هذه الأمور مطلوبة مع الخشوع حتى يصير المسلم في عداد من مدحهم الله تعالى في كتابه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ

﴿مُكْرَمُونَ﴾ سورة سأل سائل وحتى يصبح من الممدوحين بالخشوع في صلاتهم ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ سورة المؤمنون .

وأما السر في التأكيد على المحافظة على الوسطى التي هي صلاة العصر عند الجمهور فهو أن صلاة العصر يدخل وقتها والناس في أشغالهم المعاشية التي قد تلهيهم عن أدائها في الوقت المحدد لذلك أمر المؤمنون بأن يحافظوا على أدائها في وقتها المحدد ولأن الحفظة من الملائكة الكرام الذين يتعاقبون على المؤمنين بالليل والنهار ينزلون من السماء ويصعدون عند صلاة العصر وصلاة الصبح قال صلى الله عليه وسلم (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار يحفظونكم من أمر الله) رواه البخاري ومسلم مع شيء من تغيير الألفاظ لبيان المعنى، لأن الله تعالى يسأل هؤلاء الملائكة كيف تركتم عبادي؟ وهو اعلم بعباده فيقول الملائكة أتيناهاهم وهم يصلون وتركتناهم وهم يصلون فلذلك أمر المؤمنون بالمحافظة على الصلاة الوسطى صلاة العصر والوسطى مؤنث الأوسط وهو الأفضل فالوسطى يعني الفضلى ولما ثبت في صحيح البخاري ومسلم وأهل السنن من حديث سيدنا علي رضي الله عنه كنا نرى أن الصلاة الوسطى هي صلاة الفجر أي الصبح حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم الأحزاب شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملائكة قلوبهم وأجوافهم نارا.

وانت أيتها السائلة الكريمة إذا أدركتك صلاة العصر أو غيرها من الصلوات فأديها في مكان عملك فليس من شرط صحة الصلاة أن يؤديها المرء في المسجد أو في المنزل أو كذلك مع الجماعة لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال جعلت لنا الأرض كلها مسجدا وتربتها طهورا فحيثما أدركت الصلاة رجلا من أمتي فليصلها. والتعبير بالرجل دون المرأة جرى مجرى الغالب إذ لا خصوصية للرجل دون المرأة في هذا الحديث .

لا عاشور جديد ... ولا عروي آخر ؟

بقلم صالح الحاجة

تساءلت وكثيرا ما أتساءل : لماذا عندما يغيب كبير من كبارنا في تونس يبقى مكانه شاغرا فلا يأتي الخلف الذي يكون أحسن من السلف ؟ لماذا يذهب هذا أو ذاك من علمائنا وشيوخنا لا نرى من يأتي ويكون بنفس القيمة والقامة والحجم والمستوى ؟ إن من يموت يحمل معه مكانه ومكانته ... أعرف أن تونس ولادة وهي بالفعل كذلك ...

ولكن رغم هذه الحقيقة هناك عبقریات ... وهامات .. وشخصیات ... وقامات ... وأصوات ... متفردة ... ومتميزة ... وذات بصمات خاصة لا تمحى ذهب الزهاب الذي لا عودة بعده ولم يأت من يرتقي إلى مستواها ... ويبدع احسن مما أبدعت ... ويضيف إلى ما قدمت .. وأعطت ... وأنتجت .. والأمثلة على ذلك كثيرة جدا ... جدا ... ولا يقتصر الأمر على ميدان دون ميدان .. أو على مجال دون مجال ... انه يشمل كل الميادين والمجالات دون استثناء ...

وأبدا بالعلامة النحرير محمد الطاهر بن عاشور صاحب « التحرير والتنوير » فأتساءل : هل ظهر بيننا من هو أكبر وأغزر منه علما وفهما وتفسيرا وتحليلا ؟ هل احتل أحد حتى من أبنائه أو أحفاده أو تلامذته مكانته ... وحل محله ... واعطى بنفس القيمة .. والغزارة .. والعمق ... والذكاء ؟ ...

وعبد العزيز العروي ذلك اللسان والقلم والملاحظ والناقد الاجتماعي ... هل جاء بعده من يعوضه ويكون بمثل جرأته وطرافته والتصاقه بالشعب الكريم ؟ .. هل رأينا من استخدم بعده العامية التونسية برقي وبلاغة ودون إسفاف وابتذال وقلة حياء ؟ ولو استرسلت في عرض النماذج التي ذهبت ولم يقدر احد على احتلال مكانها ومكانتها لما انتهت ... ولاحتجت إلى صفحات وصفحات .. ولكنني لا احب أن استرسل تجنبنا للإحراج ... وخوفا من أن اجرح هذا أو ذاك من هؤلاء الذين يصلون ويجولون اليوم دون قيود أو حدود ويظنون انهم جاؤوا بما لم يأت به الأوائل ... وهو ظن سخيف وآثم ..

Le modèle prophétique, d'une spiritualité ouverte, équilibrée et totale, est d'emblée eschu, sans que l'on cherche à comprendre sa singularité. La modernité se présente comme ce qui vient remplacer la fonction dite mythique ou religieuse (qui conçoit le monde comme un système divinisé, ordonné et animé par le Divin) par la fonction logique (qui place l'humain doté de raison au centre). Alors que rien n'oppose sur le fond la foi et la logique scientifique.

Il est difficile, dans ce contexte, de « parler » du Prophète qui éduque et prépare à l'au-delà du monde. Ce qui apparaît comme le modèle d'un contre-exemple, d'autant que la méconnaissance entretenue à ce sujet est profonde. C'est un problème riche d'enseignements que le refus de certains en Occident d'insérer pleinement la religion musulmane, troisième rameau monothéiste, dans l'histoire commune.

Et c'est un échec pour des élites musulmanes de notre temps de n'avoir pas su interpréter et traduire leurs références fondatrices en fonction de l'évolution pour faire reculer l'ignorance et les préjugés. Le dénigrement des uns, l'apologie des autres, les deux extrémismes, suscitent un dialogue de sourds. Rasseurer, expliquer, interpréter qui est le Prophète, modèle pour tous les citoyens musulmans et au delà, pour notre temps, tous les temps, est une urgence.

Point central, il était l'« homme sûr », de confiance, de parole donnée, pétri par la miséricorde. Jamais, il n'a jugé, condamné ou violenté quiconque. Il disait que nous n'avons ni à faire peur, ni à avoir peur. Personne ne doit craindre le musulman. Au contraire, sa parole, sa maison, sa terre, sa mosquée doivent être un refuge, un lieu sûr, pour tous. Le Prophète, considéré comme *el amine*, l'homme sûr, l'homme de confiance fonda sa pratique sur le respect de toute la création et la bonté.

Il appelait à faire de la mosquée un lieu de fraternité musulmane et humaine. Lieu de louange, de prosémination et de prière comme adoration paisible, mais aussi, lieu de savoir et de culture. Ce qui compte c'est l'intériorité du cœur et le bien commun. D'où le dire prophétique *hadith* qui énonce l'idée que le cœur de l'homme de vérité contient le divin, ce que la Terre tout entière ne pourrait faire.

S'élever en jeûnant, dans le partage, en priant, sans ostentation, en se cultivant sans chercher à briller, et pardonner à ceux qui nous offensent, sans faiblesse, est à la base de la foi. En faisant allusion aux désagréments qui l'agressaient, le Prophète disait « Mon Dieu, pardonnez leur, ils ne savent ce qu'ils font ». Les extrémistes de tous bords versent dans la haine, la peur et le rejet, souvent par ignorance. Injustifiables dérives.

Donnons à réfléchir, en gardons le cap sur le sens de l'ouvert, de la droiture, et de la rectitude. Nous ne laisserons pas détourner de la conduite pieuse et juste, de la foi réfléchie et magnanime, initiées par le Prophète. Plus que jamais, nous avons besoin de nous inspirer de la conduite du Scam des envoyés, pour faire face aux défis de notre temps en assumant nos responsabilités.

à la différence. Le Coran précise que le Prophète est : « Miséricorde pour les mondes » ! Tout le travail d'information et de formation consiste à démontrer comment l'enjeu du vivre ensemble est au cœur de la mission du Prophète.

Dans le monde concret, le souci premier du Prophète était d'éveiller les consciences au principe du Dieu Un, origine de la vie, et de respecter la dignité humaine en donnant la priorité à la fraternité humaine. Et partant de fonder ainsi le vivre ensemble sur la base d'orientations spirituelles claires, séculières et ouvertes.

Cette démarche, qui devait structurer la mentalité du musulman, est remise en cause à la fin par les extrémistes, qui trahissent sa pensée, et par ceux qui refusent toute idée de religion, ou l'aborde de manière réductrice. Le concept du vivre ensemble par la fraternité universelle est le fil conducteur de l'action du Prophète, dont l'horizon était éclairé par l'engagement de faire triompher la religion révélée fondée sur l'axiome d'une éthique qui vise la responsabilisation de l'humain.

Crime relève du mystère, de l'intuition, de l'intériorité ; dans ce sens, le Prophète vise à respecter la liberté de conscience, à réactiver en chacun ces qualités et à ouvrir en conséquence les possibilités du vivre ensemble. Depuis quinze siècles, le Prophète représente une question refoulée pour l'Europe.

Cette question est réduite à des controverses, qui ne datent pas de l'histoire du XX^e siècle. La difficulté est double : d'un côté, les intégristes sont en porte à faux au regard de la voie médiane, du juste milieu, et de l'autre la pensée matérialiste et historiciste est impuissante face au sujet du modèle de vie équilibré, individuelle et collective, prôné par le Prophète. Les uns confondent, les autres séparent, alors qu'il faut articuler et conjuguer la foi et la raison, l'un et le multiple, l'ancien et le nouveau. Le Prophète nous indique comment trouver la mesure. Au moment où l'humanité a besoin de se souvenir de ses leçons, il est caricaturé par les uns et les autres, ou perdu de vue par un monde soumis aux marchands du temple, ou perturbé par ceux qui réfutent tout idée de temple.

Pourtant, le Prophète est une personnalité historique, bien réelle, qui a changé la face du monde et interpellé les consciences. Aujourd'hui, alors que les relations Islam/Occident sont intenses et problématiques, la polémique et le rigorisme, d'un côté, et l'islamophobie et la xénophobie, d'autre part, resurgissent. L'imaginaire l'emporte sur la vision objective. Les musulmans ne sont pas exempts de critiques et pour se corriger, ont besoin, précisément, de se souvenir du Prophète pour vivre leur temps et se projeter dans l'avenir.

Double difficulté. Les rigoristes figent et déforment le passé. Et ce qui prévalait dans l'esprit matérialiste est la désacralisation de tout, l'incidence que la négation du principe de prophétie serait à la base de l'émancipation et de la « vraie » civilisation. La vision moderniste considère que la cause première et la fin relèvent d'un autre ordre que le Divin et que le concept de progrès matériel ne doit pas être remis en jeu.



Le Prophète et les enjeux actuels

Par Mustafa CHÉRIF

Dans un monde trouble et désorienté, il est vital de se souvenir du guide des musulmans, qui nous apprend comment se comporter. Les dérives de toutes sortes auxquelles nous assistons, n'auraient pas atteint un tel degré de gravité si les leçons du Prophète étaient retenues. Dans toutes les langues du monde, lorsqu'on écrit ou que l'on prononce le mot « Prophète », tout le monde sait immédiatement qu'il s'agit du prophète de l'islam, sans même avoir besoin d'ajouter son nom : Muhammad.

Modèle de vie méconnu

Il est la figure universelle de l'Envoyé, compris comme annonciateur, avertisseur et éducateur. Il ne prétendait à rien d'autre. Il a vécu et agit dans le cadre de cette mission, dépassant toutes les frontières, pour apprendre à tous comment adorer le Créateur des mondes et vivre ensemble. Pour l'islam, il réunissait la quintessence des qualités de tous les envoyés, ses frères et ses prédécesseurs, de Noé à Abraham, Moïse, et Jésus.

Aujourd'hui, certains « musulmans » — une minorité souvent manipulés —, sont les premiers qui portent préjudice à l'image du Prophète, par leur inculture, leur archaïsme et leur comportement irrationnel. Ces rigoristes se ferment et contribuent à la désinformation et à l'islamophobie.

En Occident, même si son « génie » est plutôt reconnu par des savants, le Prophète est méconnu. Des deux côtés, en Orient et en Occident, on enregistre de l'oubli et de l'intolérance, alors que l'enjeu fondamental actuel est le vivre ensemble, selon le beau modèle prophétique, au-delà des différences et des divergences.

La vision du Prophète, modèle de vie pour les musulmans et qui témoigne d'un sens singulier de l'humain, accueille et en même temps respecte le droit

aux créatures ! Celui dont l'ignorance et l'ineptie lui font prétendre que la sainteté a disparu à son époque montre surtout qu'elle lui fait défaut. On a dit en ce sens :

Quiconque prétend que les saints ont disparu à son époque est en réalité l'objet

*D'une ruse divine qui ne fait qu'accroître sa perte.
Dieu les cache aux créatures dans Sa création,
Et sache que c'est par bienveillance qu'Il procède ainsi.
Car les saints sont les fiancés du Miséricordieux ;
Et Il les dérobe aux regards de ceux qui Le trahissent.
Seul peut connaître l'un d'entre eux
Celui qu'Il a élu pour Sa présence.
Si tu n'as pas rencontré dans ta vie de connaissant
Tu n'as pas vraiment vécu, car la vie ne vaut que spirituellement. »⁽⁴⁾*

(4) *Sigmasse celiste*, pp. 37-38.

enseigne-t-il, ne consiste pas à observer des règles, ni à gravir des échelons. Le *taṣawwuf*, c'est avoir le cœur intègre, l'âme généreuse, se conformer à la révélation, connaître le message, suivre les prophètes. Celui qui se tient en dehors de ces sources se verra comme un berger dans le jardin du diable, il sera submergé dans l'océan des passions et errera dans les ténèbres de l'ignorance. » Le Shaykh Abū Madyan précisait par là que le chemin de la sainteté implique la nécessité, pour celui qui le suit, de purifier son âme de ses manques, en luttant contre les tentations de l'adversaire, et d'assainir son cœur par les lumières de la connaissance. La pureté d'âme et la clarté de l'esprit sont les qualités de tous les prophètes et envoyés de Dieu, qui sont les premiers modèles de sainteté auxquels on doit se référer.

« Ne peut écouter cette Science que celui qui a obtenu ces quatre choses : l'ascèse (*az-zuhd*), le savoir (*al-'ilm*), l'abandon (*at-tawakkul*) et la certitude (*al-yaqīn*). » La voie spirituelle n'est pas une attente passive et immobile de la grâce, mais une participation active à la révélation de Dieu qui donne à chacun ce qu'il est capable de recevoir. Abū Madyan enseignait à ses disciples la valeur de l'ascète et de la retraite spirituelle, entendus comme détachement extérieur et intérieur du monde pour s'orienter vers Dieu seul. Il leur apprenait, à travers une discipline spirituelle stricte, à contrôler les mouvements de leur âme, notamment par la pratique régulière du jeûne, pour qu'ils goûtent réellement la condition de la pauvreté spirituelle, et afin qu'augmente en eux la soif de connaître de Dieu. Abū Madyan apprenait à ses disciples à ne placer leur confiance qu'en Dieu seul, le meilleur Garant, conformément à la parole coranique : « Dieu nous suffit. Et quel excellent Protecteur ! » La confiance en Dieu fait cesser toute agitation de l'âme provoquée par le doute et l'ignorance. Dieu apaise le cœur de celui qui croit avec certitude en Sa promesse. C'est vers cette « science de la certitude » (*'ilm al-yaqīn*) et cette paix intérieure que le shaykh Abū Madyan guidait les aspirants sur la voie de la réalisation spirituelle qui consiste à atteindre, par la chute des voiles qui obscurcissent l'œil du cœur, « la vision de la certitude » (*'ayn al-yaqīn*), avant de connaître, *in shā' Allāh*, la « réalité de la certitude » (*ḥaqq al-yaqīn*), dans l'intimité de la Présence unifiante de Dieu.

Le shaykh al-'Alīwī termine son introduction au commentaire des *Hikam* en disant : « Louange à Dieu qui a doté chaque lieu de saints et a donné des guides à chaque époque, et c'est une grâce qu'Il accorde

distingue pas des autres voies orthodoxes du soufisme, dans la mesure où toutes représentent des méthodes diverses qui tendent vers le même but, car la Vérité est unique. On remarque néanmoins que la méthode d'Abû Madyan, empreinte de sobriété et de simplicité, rappelle les traits essentiels du modèle de sainteté propre au socle des prophètes, Muhammad. Les maîtres shâdhilis voient en particulier dans la figure d'Abû Madyan un héritier de la fonction prophétique d'interprétation et d'actualisation de la révélation. L'homme que Dieu élit à une telle responsabilité est, par nature, « esprit fait chair » : ses paroles et sa personne représentent en soi l'essence même du message ; il n'est donc pas tenu d'argumenter ou de laisser un écrit, ce qui est en accord même avec le caractère « illettré » (*awmî*) du Prophète. « Autre conséquence, son langage doit être le plus universel possible, afin que toute la communauté des croyants puisse bénéficier de son intervention et de sa présence. Le saint héritier de la prophétie présente son enseignement sous une forme extérieure qui est extrêmement simple mais recouvre une ample gamme de possibilités, ce qui lui permet de s'adapter au besoin spirituel de chacun. C'est cette fonction prophétique qui explique les événements politiques qui marquent souvent la vie publique de ce type de saint. »⁽³⁾

Bid'at al-marîd, l'initiation de l'aspirant

Dans un exposé des principes de base de la voie spirituelle, intitulé *Bid'at al-marîd*, le Shaykh Abû Madyan s'adresse à ses disciples en tant que « gens de la volonté » (*ahl al-irâda*). L'aspiration spirituelle du novice (*al-marîd*) représente, en effet, une qualité fondamentale dans le cheminement sur la Voie initiatique, essentiellement au début – puisque « initiation » signifie « commencement ». Cette tension traduit la disposition intérieure et l'intention sans lesquelles l'aspirant à la proximité divine ne peut bénéficier de la maïestique du maître spirituel. Cependant, cette volonté propre devra devenir, au fur et à mesure de la progression spirituelle, une vertu secondaire, dans l'adhésion toujours plus consciente et sincère à la Volonté de Dieu.

Dans la perspective opérative du Shaykh Abû Madyan, la voie spirituelle ne doit pas être confondue avec un ensemble de pratiques, même spirituelles, dans une sorte de formalisme technique, ni avec une théorie abstraite ou des formules métaphoriques. « Le *taṣawwuf*,

(3) Cheikh al-'Alîwî, *Sagesse céleste. Traité de soufisme*, traduit en français par M. Chahry et J. Gonzalez, éditions La caravane, Cognac, 2007, pp. 18-19.



Sainteté et orthodoxie : Abû Madyan Shu 'ayb (1126/1197)

par Abd al-Wadoud Gouraud⁽¹⁾

(Suite numéro 5/6)

Lorsque le maître se fut résolu à entreprendre ce voyage, la chose déplut à ses compagnons qui, mécontents, tentèrent de l'en dissuader. Le maître les fit taire et dit : « Mon souhait va bientôt se réaliser, et la tombe en ce lieu m'est déjà prédestinée ; je ne peux y échapper. Mais je suis vieux et faible, et ne peux donc me déplacer. Voilà pourquoi Dieu a envoyé quelqu'un pour m'y emmener avec bienveillance et m'y conduire le plus agréablement possible ; je ne verrai pas plus le sultan qu'il ne me verra. » Ses disciples, tranquilisés, virent qu'il s'agissait d'un nouveau prodige. Ils partirent donc et voyagèrent en toute sérénité, puis ils arrivèrent aux environs de Tlemcen. » Ils firent halte aux alentours de la ville. « Le soir venu, il se tourna vers La Mecque, fit le témoignage de foi et dit : « Me voilà ! Je suis venu *en me dépêchant pour Te faire plaisir, ô Seigneur* (Coran XX, 24). » Puis il ajouta : « Dieu est la réalité ! » et rendit l'âme. On emmena alors son corps à al-'Ubbād, qui est un petit village proche de Tlemcen, et on l'enterra là. »⁽²⁾ Son mausolée continue jusqu'à nos jours de faire l'objet de nombreuses visites pieuses.

A une époque qui précède la formation des confréries (*ṭarīq*, litt. « voies », « méthodes »), la voie spirituelle d'Abû Madyan ne se

(1) Membre de l'Institut des Hautes Études Islamiques (IHEU), membre fondateur de l'Institut Supérieur de Théologie Musulmane (ISTM) de la grande mosquée de Lyon.

(2) *Sigraṣṣa cāfiya*, pp. 33-34.

SOMMAIRE

Sainteté et orthodoxie : Abû Madyan Sîm 'ayb (1126/1197)..... 3

par Abd al-Wadoud Gouraud

Le Prophète et les enjeux actuels..... 7

Par Mustapha CHERIF



JAWHAR EL ISLAM

Revue culturelle islamique - Tunisie

Numéro 7/8 - 21ème année